

المشرق

يرفع فرائض التهاني البنوية الى اعتاب الحضرة البابوية

قداسة البابا بيوس العاشر

إمام الاحبار وخليفة هامة الرسل ونائب المسيح على الارض

بفرصة يوبيليه الكهنوتي والاسقفي

اليوبيل الكهنوتي ١٨٥٨-١٩٠٨

اليوبيل الاسقفي ١٨٨٤-١٩٠٨

يوبيلا الحبر الاعظم الكهنوتي والاسقفي

نظر الاب لويس شيخو اليسوعي

في ١٨ ايلول سنة ١٨٥٨ نال قداسة الحبر الاعظم رتبة الكهنوت الشريفة فيكون مرَّ عليهِ كاهناً خمسون سنةً وادرك ما يُعرف اليوم بالعرس الذهبيّ. ثم انَّ قداستهُ في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٨٤ رُقّي الى درجةٍ أسمى شأناً اعني رتبة الاسقفية التي تُعدّ في الكنيسة كمال الكهنوت وتخوّل المتقلّد بها الحقّ لرعاية بيعة الله التي اقتناها المسيح بدمهِ (اعمال ٢٠:٢٨) فبلغ منها اليوم خمساً وعشرين سنة وذلك العرس الفضي. فلم يسع الكاثوليك أن يضربوا الصفح عن تذكارين جليلين كهذين دون ان يتسارعوا الى اقدام كبير احبارهم ويرنوا بالنظر الى شمس فلكهم ومنارهم ليقدّموا لسامي عرشهِ فرائض الاكرام ويترجموا لهُ عن شواعر اخلاصهم البنوي ويستمدّوا من ضيائهِ نوراً جديداً ليسيروا في ظلمات هــذا العالم فيسلموا من مهاوي الضلال ولا يتيهوا في مناوي الفســاد او يعثروا في سبيلهم بعاثر الريب والشكوك. وما لنا في هذا الموسم العظيم الّا ان نضيف صوتنا الضعيف الى اصوات الثلثمائة مليوناً من الكاثوليك المرتفعة من اربع خوافق العالم الى ابي المراحم ومصدر كل الهبات والنعم طالبين منهُ من صميم الفؤاد بان يؤيد النائب عنهُ في ارضنا بيمينهِ القادرة ويصونهُ بعينهِ الساهرة ويسبغ عليهِ ظلّ انعامهِ في هذا العيد ويتمنا بعد مدة بافراح يوبيلهِ البابوي كما له الحمد

١ الكاهن

انّ للدول وللرجال العظام شعاراً يُعرف بهم ويُعرفون به قد اختاروهُ ليكون منبهاً لافكارهم وباعثاً لهممهم فكأنهُ الغاية التي يرمون اليها والنور الذي يستضيئون به فاذا حقّقوهُ بالفعل كان اجمل ثناء على حسن سلوكهم وصدق نيّاتهم. ولبيوس العاشر امام الاحبار شعارٌ فاخر استعارهُ من كلام بولس الرسول الى اهل افسس (١:٣-١٠) حيث وصف للمؤمنين غاية سرّ الفداء التي هي «تجديد كل شيء في

المسيح » فما دعا الله حبرهُ الجليل الى رئاسة الكنيسة جمعاء. الّا وجاهر بهذا الشعار وجعلهُ فحوى براءتهِ الاولى الى لفيف رعاياه

ولا غرو فان نظرنا الى حياة صاحب اليوبيل واستقرينا اعمالهُ رأيناهُ جاريًا في نور هذا المبدأ الشريف ليس فقط منذ جلوسهِ الأنوس على الاريكة البابويّة ولكن منذ تجلّى له الله يوم قبولهِ نعمة الكهنوت فادرك من حينهِ سموّ تلك الدعوة وعرف حقّ المعرفة انّ الكاهن قبل كلّ رجلُ الله ورجل النفوس فلم يَعُد مستقلًّا بنفسهِ بل اصبح آلةً لمجدهِ تعالى فيحيي كلّ موات بحياة المسيح ويصلح كلّ فساد بقوّة المسيح ليكون المسيح كلًّا في الكل (كو ٣ : ١١) لانّ كل شيء هو منهُ وبهِ واليهِ (رو ١١ : ٣٦) لهُ المجد على مدى الدهور

قضى الكاهن يوسف سارتو ربع قرنٍ في تتمّة واجبات الكهنوت كان كل يوم من تلك الاحقاب تحقيقًا لشعارهِ السابق ذكرهُ . فخدم اوّلًا النفوس في قرية حقيرة تُدعى تُمبولو كان معظم اهلها من اصحاب الصنائع والفلاحة فما كان يأبى ان يختلط بهم بل كان يؤانسهم ويلاطفهم ويتحنّى لهم ويستطلع كلّ اخبارهم ليقف على حاجاتهم ويسدّها ما امكنهُ فاكتسب بانسهِ ثقتهم ولم يخفَ عنهُ شيء من اسرار حياتهم حتى عرف خيرهم وشرّهم وذاق حلوهم ومرّهم وصار اخبر الناس باحوال العَمَلة وأحكمهم بالأبحاث الاجتماعية واعرفهم باوهام الاشتراكيين وتوهّمات الفوضويين التي كتب فيها بعدئذٍ كتابة رجل ثاقب الفكر سامي المدارك واسع الباع

وممّا عُني بهِ في السنوات الاولى من كهنوتهِ تعليم الشعب وتهذيبهُ بالآداب المسيحيّة لعلمهِ بقول النبيّ (ملاخي ٢ : ٧) : « بانّ شفتي الكاهن تحفظان العلم ومن فمهِ يطلبون الشريعة اذ هو ملاك ربّ الجنود » . فلم يسعهُ ان يكون ملحًا تفهًا لا يُصلح ارض القلوب او مصباحًا يُحجب ضوءهُ تحت المكيال . فكان كل يوم احد او عيد يرقى منبر الخطابة ليرشد المؤمنين ويدعوهم الى كل الحسنات وصالح الاعمال . وكان في اوّل امرهِ يحبّ زخرف الكلام والتأنّق في العبارات لكنّهُ عدل عن ذلك بمشورة احد الكهنة الافاضل فصار يفضّل سذاجة الانجيل على الحكمة البشريّة وعلى كل براعة في الالفاظ فتحقّق بالاختبار قول الرسول (عبر ٤ : ١٢) : « انّ كلام الله هو حيّ عامل امضى من كل سيف ذي حدّين نافذ حتى مفرق النفس والروح » فيستغني عن البلاغة البشريّة

وكانَّ الله اراد منذ ذلك الحين ان يوطّن نفس كاهنه على علاج كل الاسقام فانتشب في تلك الاثناء الحرب بين دولتي ايطالية والنمسة ودُعي اخوهُ الى الجنديّة فلم تلبث الجرحى أن تُرسل الى كل المستشفيات ليقوم بمداواتهم اصحاب الفضل. وما كان يوسف سرتو ليتأخر عن هذا عمل الرحمة بل كان يتردّد على المستشفيات ليؤدي لاولئك البائسين كل الخدم الروحية والجسديّة التي في طاقتهِ دون تمييز بين جرحى الايطاليين والنمسويين فيتفانى على حدٍّ سوى في سبيل الجميع ليكسبهم جميعًا للمسيح. وقد واظب على تلك الخطة معتزلًا في تصرّفهِ للامور السياسيّة داعيًا الى الله بان يمدّ رواق السلام على وطنهِ الى ان انتهت الحرب بدخول بلاد البندقيّة في حوزة ايطالية سنة ١٨٥٩

وبلغ راعيَ الابرشية اسقف ترافيسة ما خُصَّ بهِ يوسف سرتو من المزايا الطيّبة والفضائل الكهنوتيّة السامية فدعاهُ سنة ١٨٦٧ الى تدبير رعيّة اعظم من تمبولو وهي بلدة سَلزَانو من اعمال البندقيّة لعلمهِ بتجرُّدهِ عن كل غاية بشريّة في خدمة النفوس في مدينة كانت سابقًا تحت حكم النمسويين. فقضي على الكاهن البارّ ان ينفصل عن ابنائهِ في تمبولو مع شقّ النفس وباشر بكل غيرة ونشاط واجباتهِ في مأموريّتهِ الجديدة مستشعرًا بشعارهِ المعتاد أن يجدّد كل شيءٍ في المسيح. وكانت اول كلمة تلفّظ بها امام اهل سلزانو المقبلين للسلام عليهِ: « انني ساكون رجل الكلّ وخاصة الجميع بلا استثناء »

وكذا كان في الحقيقة مدة السبع السنين التي قضاها في سلزانو. فانَّ اهل البلدة كانوا لسانًا واحدًا في الثناء على تراهتهِ وزهدهِ وخدمتهِ للكلّ دون مراعاة الاشخاص او محاباة الوجوه. وكان قلبهُ الابوي يحدو بهِ الى تفضيل الفقراء والمساكين والمرضى والمهملين وكان لا يردّ مستعطيًا حتى انهُ غير مرّة احتارت اختاهُ في البيت ماذا تُعدّان لقوتهِ اليوميّ اذ كان يتصدّق بكل ما تقع عليهِ يدهُ من دراهم واثاث وطعام. ففي احد الأيام اهداهُ رجلٌ من ابناء رعيّتهِ لفصل الشتاء حطبًا ليصطلي به فما مرَّ عليه ثلاثة ايام حتى وزّعهُ كلّهُ على ذوي البأساء. وبقي طول الشتاء يُكابد شدّة البرد. وفي يوم آخر ضمن الخاتم الذي كان يتختّم به خوارنة سلزانو ايذانًا برتبتهم لوفاء دين استدانهُ لمساعدة الفقراء.

وكان تعطفهُ على المرضى اعظم وارقّ فيضعف مع الضعفاء قدوةً بالرسول (٢ قور ١١: ٢٩). وكان لا يتريَّث في عيادتهم اذ يبلغهُ ابتلاؤهم بالمرض فيزورهم ويعزّيهم ولا ينفصل عنهم حتى يزوّدهم بالاسرار ويمدّ اليهم يد المساعدة. وكثيرًا ما كان يخرج اليهم في آناء الليل في أيام البرد القارس. وكان في البلدة مستشفى لذوي العاهات كان يخصص لخدمة مرضاهُ قسمًا كبيرًا من وقته وماله. ولمَّا حاول بعض ذوي المطامع أن يضبطوا اوقافهُ دافع بنفسه عن حقوق المستشفى لم تأخذهُ في دفاعه لومة لائم او مهابة ظالم

وكان سرتو مع رعاية النفوس لا ينسى خدمة الربّ وما ينوط بكرامة بيته. فانهُ اسرع الى اصلاح كنيسته وترميمها ففرشها بالرخام وزيّنها بالآثاث الجميل واقتنى لها الآنية المقدَّسة لخدمة الهيكل ونقش على جدرانها التصاوير البديعة الممثلة لاعمال القديس الرسول برتلماوس الذي كانت الكنيسة على اسمه. واعدَّ ارغنًا رخيم النغمات يوقع على اصوات ارباب الغناء الكنسيّ في الحفلات الدينيَّة. وكان لا يضنّ بالنفس والنفيس لزيادة رونق الاعياد وتنشيط روح الدين في رعيَّتهِ فأنشأ الجمعيات التقويَّة كالاخويّات والشركات الصالحة لاكرام القربان الاقدس وتعميم شركة الورديَّة وعبادة درب الصليب. امَّا المواعظ والرياضات السنويَّة فكان يباشرها في اوقاتها فيتقاطر الى استماع تعاليمه الخلاصيَّة الغرباء فضلًا عن اهل رعيَّتهِ لبلاغة كلامهِ

وكان اهتمامهُ بالاحداث عجيبًا فيجمعهم ويلقنهم مبادئ الدين وقد ابتنى لهم قاعة كبيرة تسعهم على كثرتهم. وكذلك المهاجرون الى البلاد القاصية كان يهتمّ بتسفيرهم ويوصي بهم ارباب الدين في الاقطار الاجنبيَّة ليكونوا في مأمن من الاخطار والبلايا عند وصولهم ولا يلحق بايمانهم ضرر

وفي سنة ١٨٧٥ تفقَّد اسقف ترافيسة السيد تيناللي مدينة سلزانو ورأى عيانًا ما اصطنعهُ راعيها الفاضل من الاعمال الاثيرة. فظنَّ ان رجلًا كيوسف سرتو لا يصلح الَّا لكنيستهِ الكاتدرائيَّة ليكون له كمساعد ومستشار في تدبير ابرشيَّتهِ فجعلهُ قانونيًا على بيعتهِ وناظرًا على اعمال كتبتهِ

ما علم السيد تيناللي أن ادرك قيمة الكنز الذي حصل عليه فلم يدع امرًا خطيرًا الَّا وكلّ بهِ القانونيّ سرتو. واوَّل ما عهد اليه رئاسة مدرستهِ الكهنوتيَّة

ليكون للمترشحين لدرجة الكهنوت قدوةً حيّة ومثالاً لجميع الفضائل . فكدَّ الرئيس الجديد ذهنهُ ولسهر عينهُ في القيام بهذه المهمّة ليؤازر كنيسة الله بكهنة صالحين يجمعون بين العلم والتقى وهما جناحا الكاهن بهما يحلّق الى اعالي السماء ويرقّي معهُ النفوس الموكول اليهِ تدبيرها

وكان مع هذا يبسط عنايتهُ الى كل المشروعات الخيريّة من تربية الاحداث وتهذيب الشبيبة وتقديس العيال المسيحية . وكان في سازانو انشأ جميّة للشبّان يلقي عليهم خطباً لاهوتية وفلسفيّة واجتماعيّة . يباحثونهُ فيها ويعرضون عليهِ المشاكل ليحلّها فأتت بأثمار جنيّة . فرأى في تراقية ان يستأنف هذه الخطب ويدعو اليها جمهور الشبّان فأتوها حتى ضاقت بهم الغُرَف الفسيحة

وكان لا يأبى ان يخدم الاجانب ايضاً من غير دينهِ فمن ذلك انهُ لبّى دعوة اسرة موسويّة من تراقية وعلّم اولادها الآداب الايطالية رغماً عن اشغالهِ المديدة . فعرفت لهُ تلك العائلة حسن فضلهِ واثنت على همّتهِ القعساء .

امّا اسقفهُ فكان يزداد كل يوم اعتباراً لشخصه وفي سنة ١٨٧٨ خرج لزيارة الابرشيّة فرافقهُ قانونيّهُ في هذه المهنة وكان كلاهما لا يدّخران وسعاً في العمل حتى ان الاسقف أُصيب بفالج واضطرّ الخوري سرتو ان ينوب عنهُ في تدبير الامور فسرَّ الجميع بحسن سياستهِ ولين عريكتهِ ولمّا استأثر الله بالاسقف بعد مدّة عُقدت الخناصر على توليتهِ النيابة الاسقفيّة ريثما يتعيّن لسالف الميت خلف

وبعد اشهر قُلّد السيد كليفاري شؤون اسقفيّة تراقية سنة ١٨٨٠ فما كان منهُ الّا ان اثنى على ادارة نائبهِ لأحوال الابرشيّة واثبتهُ في مقامهِ وكان يرجع الى رأيهِ في كل مذاهبهِ . ولو كان الله اعلمهُ بالغيب لعلم انّ نائبهُ هذا سوف يكسوهُ يوماً بالارجوان ويشرّفهُ بمنصب الكرادلة . ولمّا زار الاسقف في العام القابل الاعتاب الرسوليّة رافقهُ في زيارتهِ نائبهُ العزيز فقدّمهُ للحبر الاعظم لاون الثالث عشر فتلطّف بهِ امّا الكاهن الوضيع فلم يخطر ببالهِ انهُ هو المندوب ليخلف لاون في رتبتهِ الرفيعة ويجلس على هذا العرش السامي الذي كان منطرحاً عند اقدامهِ فسبحان الذي يُنهض المسكين من التراب ليرفعهُ فوق عظماء الارض

لم تطل مدة اسقفية السيد كليفاري في مدينة تراقية فانتدبهُ الحبر الاعظم سنة ١٨٨٢ الى كرسي پادوا وقام بدلًا منهُ احد اساتذة مدرسة تراقية السيد ابولونيو وكان هذا يعرف حق المعرفة النائب الاسقفي سرتو فسلَّم اليهِ مقاليد التدبير في انحاء ابرشيتهِ لعلمهِ بانهُ اذا مُني بامر دبَّرهُ من احسن وجوههِ · فبقي النائب سائرًا على خطتهِ مثمًا برضى الرؤساء والمرؤوسين اذ دخل عليهِ السيد ابولونيو في صباح احد الأيام على فجأة وسلَّمهُ براءة الحبر الاعظم التي تفوّض الى عهدتهِ اسقفية منتوا · فبقي النائب واجمًا لا يحير جوابًا · وكأنَّ الرتبة الاسقفية ظهرت لهُ في جلالها وشرفها فأنف ان يتكأّد اعباءها وتخوَّف مسئوليتها امام الديّان الرهيب فترامى على كرسي امامهُ واندفع يبكي ويتوسَّل الى اسقفهِ بان يُبعد عنهُ هذه الكأس ويطلب من الحبر الروماني بان يختار من هو اولى بهذا المقام · لكنَّ البراءة البابوية كانت قد أعلنت وكان حكم البابا قاطعًا فلم يمكن الاسقف ابولونيو ان يسكّن جأشهُ الَّا انهُ عرض عليهِ مثال الرب الذي احبَّ البشر وجعل نفسهُ مطيعًا حتى الموت وموت الصليب · فنصت البئيس لهذا الكلام واتخذهُ كدليل على ارادتهِ تعالى

٢ الاسقف

الاسقف في الكنيسة بمنزلة الاب في البيت والرئيس في الجماعة والوالي في المدينة يرعى بيعة الله ويرشد ابناءها من كهنة واكليريكيين وعالميين فيقودهم في طريق الخلاص ويزيّن نفوسهم بالفضائل ويصونهم عن الاضاليل والآراء الفاسدة ويسهر عليهم سهر من سيحاسبهُ الله عن كل واحد منهم · وذلك ما كان يُرهب الخوري سرتو عند انتخابهِ لكرسي منتوا ويرعد فرائصهُ لاسيما انَّ اهل منتوا كانوا وقعوا من بضع سنين في اشراك الفوضويين الذين اسعروا في قلوبهم المطامع واثاروا الفتن وحجبوا عن القلوب انوار الدين · الَّا انَّ البابا لاون لم يوجّه اختيارهُ الى النائب الاسقفي سرتو الَّا لعلمهِ بمقدرته · ولمَّا رآه بعد سيامتهِ عند أقدامهِ باركهُ قائلًا: « ان كان اهل منتوا لا يحبُّون راعيهم الجديد فذلك دليل على انهم لا يستطيعون ان يحبوا احدًا لانَّ السيد سرتو احبّ الاساقفة واكثرهم لطفًا ودماثة » ثم صرفهُ الى ابرشيتهِ ليصطاد نفوسها في الشبكة الرسولية

خرج السيد سرتو من رومية وهو يردّد قول بطرس للمسيح: « بكلمتك ألقي الشباك ». وكان منذ تقرّر انتخابهُ لاسقفيّة منتوا جعل تحت نظره شعارهُ المعروف بان يجدّد كل شيء في المسيح. وقد اودع ذلك رسالتهُ الاولى التي وجّهها الى المجلس الّتي في منتوا بقوله: « ستلقون في الوفود اليكم كاهناً لواؤُهُ لواء السلام وشريعتهُ شريعة الحبّ. لأنّ راعيكم الجديد فقير بالارضيّات لكنّهُ غنيٌّ بالقلب. لا يأتيكم سوى لغاية واحدة ليخلّص نفوسكم ويجعل كل رعاياهُ اسرةً واحدة كلّها احباب واخوان »

والحق يقال ان الاسقف ما كاد يدخل مدينتهُ حتى جذب اليهِ كل خراف رعيّتهِ فان غنى قلبه كان مفتاحه الى قلوبهم فنال بهِ ما لا يُنال بغنى الذهب والمال وربح الكل للمسيح واتّخذ له في الاسقفيّة كقدوة حياته مثال القديس كرلس بورومايوس. ولمّا رأى الحقل الموكول لحراثته واسعاً كثر فيهِ الشوك والزوان باشر باصلاح ما وجده أمسّ واحوج اعني سيرة الكهنة ورجال الدين لعلمهِ بانّ الاكليريكيين كمرآة ينظر الشعب فيهم الخير والشرّ فيقتدي بهم فاختار لتدبير الرعايا رجالاً رآهم اهلاً لهذه المهنة الشريفة وجعل لهذه المناصب الاكليريكيّة سباقات يدعها المترشحين على حسب استحقاقهم وعلومهم

وكذلك رقّى الدروس في المدارس الاكليريكيّة واضاف اليها العلوم العصريّة التي لا ندحة للكهنة من الالمام بها. وكان يتردّد حيناً بعد آخر على المدارس فيراقب تعليم المعلمين ويتحقّق نجاح التلامذة وكثيراً ما كان يفحصهم جهاراً باللغات والعلوم الدينيّة والدنيويّة فيندهش الجميع من سعة معارفهِ. وفي بعض السنين توفي على بغتة معلم اللاهوت الادبيّ ولم يجد استاذاً مستعداً لمواصلة تعليمهِ فتولّى الامر بنفسهِ مع وفرة اشغاله واعرب عن طول باعهِ في هذا العلم ذي المشاكل والعقبات

ثم اخذ يزور الابرشيّة في اوقات متقاربة ليبعث همم الرعاة والمؤمنين معاً ولم يأنف ان يلقي العظات حتى في القرى الحقيرة بل كان اذا زار كنيسة يجلس في كرسي التوبة ليحلّ الذين يقصدونه للاقرار بخطاياهم فزاد بمثله هذا اقبال المؤمنين على الاسرار ونشاط الكهنة في اتمام واجباتهم

ثم أعقب السيد سرتو اصلاح الاكليروس باصلاح لفيف المؤمنين طائفةً طائفةً وطبقةً طبقةً شأن البستانيّ الحاذق الذي يسيل مياه الحوض الى كل مزدرعاته. وكان لهذه

الغاية يوفر الوسائل الدينيّة ويؤسس الجمعيّات التقويّة وينشئ الشركات الخيريّة. وكان يتقرّب الى اعداء الدين نفسهم حتى يكسبهم للسيرة الصالحة. وقد مات غير واحد منهم بعد ان اناب الى الله عن يدهِ

ومن الاعمال العظيمة التي قام بها السيد سرتو (سنة ١٨٨٦) الاحتفال بالمئة الثامنة لموت القديس انسلموس الذي كان بشّر في ابرشية منتوا (سنة ١٨٦١) ثم حفلات المئة الثالثة لوفاة القديس لويس دي غنزاغا اليسوعي المولود قريباً من منتوا وكان اجداده تولّوا امرة هذه الولاية فانّ الاعياد البهيجة التي جرت في هذين الموسمين بثت في النفوس روح التقوى وازالت عن قلوب كثيرة غشاوة آثامها

وكانت الاقطار الاوربية قد سبقت ايطالية في عقد المؤتمرات الاجتماعية للنظر في امور العملة وصيانة حقوقهم وعلاج ادوائهم فانبرى السيد سرتو لهذا العمل في وطنه وبهمّتهِ اجتمع سنة ١٨٩٠ اعضاء المؤتمر من كل انحاء ايطالية في مدينة بلاسنتة فتفاوضوا في كل المسائل الاجتماعيّة التي تشغل اليوم افكار الدول واتّخذوا ما رأوهُ انسب من الاحتياطات الاقتصاديّة والتحويرات المعاشية لتخفيف وطأة الفقر عن العملة وتحسين احوالهم ومنع الازمات والاعتصابات التي تزيدهم شقاء ومضرّات

كان الاسقف سرتو قضى في منتوا تسع سنوات في اعمال شريفة كان يقدّرها الناس قدرها مع كونهِ يسعى جهده في اخفائها تواضعاً. وكان الحبر الاعظم لاون الثالث عشر قد عرف فضائل السامي وهو ينتظر فرصةً ليعلن باعتبارهِ لشخصهِ وبثقتهِ في رويّتهِ فحانت تلك الفرصة لمّا توفي بطريرك البندقيّة السيد دي اغوسطينيس فلم يجد الحبر الاعظم من يدعوهُ الى هذه الرتبة الشريفة احقّ شأناً من اسقف منتوا لكنّهُ لم يشأ مع هذا ان يحرم اهل ابرشيّتهِ من تدبيرهِ لعلمهِ بأنّ الجميع كباراً وصغاراً يتمضون كأباً لفقده فترك له تدبير اسقفيّة منتوا الى سنتين ريثما يقوم بادارتها من هو كفوءٌ لمواصلة الاعمال الجليلة التي انشأها. وقد اضاف الاب الاقدس الى هذه النعمة الاولى نعمة ثانية فنظم البطريرك الجديد في سلك امراء الكنيسة وكاردلة البلاط الروماني في اواسط حزيران من السنة ١٨٩٣

*

ليس هنا المكان لنطرئ مفاخر البندقية ونعدد اوصافها كفاها فخراً انها مدة اجيالٍ متوالية كانت ربة البحر تزاحم بتجارتها البحرية كل تجارات الدول الاوربية. ولما امجادُ الدينية لرفع شأناً واجلّ قدراً من محاسنها الدنية فانها تشرّفت بشارة الانجيلي مرقس تلميذ بطرس ونالت من كرسي هامة. الوسل الرتبة البطريركية منذ قرون عديدة. وقد شرّف هذا المقام كثيرون من افاضل الرجال اشهرهم القديس لورنسيوس جستنياني في القرن الخامس عشر فانّ اسمهُ لا يزال الى عهدنا حيّاً في البندقية يباركهُ كل من يذكر فضائلهُ العجيبة

اقتدى يوسف سرتو في اسقفيته بكرلوس بوروماوس فانتقى في البندقية بامثال سلفه لورنسيوس ليحيي فضلهُ بين اهل بطريركيته. ولم تبقَ هذه الرغبة مقرونةً في قلبه بل لاحت في عيون الجمهور منذ الأيام الاولى بعد تنصيبه وكان يتشبه بشفيعه خصوصاً في اعمال الرحمة نحو البائسين والمرضى والفقراء. وقد وجدوهُ يوماً كالقديس لورنسيوس حاملاً في ظلمة الليل فراشاً لبعض المساكين بلغهُ انهُ في اسوإ حالة في احد اكواخ المدينة. فما لبث ان شاع فضل البطريرك واشتهر تفانيه نحو المعوزين حتى عرف الجميع انّ الحبر الجديد احد رجال الله فاخذوا يساعدونهُ في مشاريعهِ الخيرية ويجارونهُ في مبرّاتهِ. وكان اعداء الدين نفسهم لم يتجاسروا ان يرشقوهُ بطاعنهم خوفاً من الجمهور لئلا ينسبوهم الى الكذب

وكانت الحكومة المحلية لا تزال الى عهدهِ معادية للدين ولأربابه وما كان الكردينال سرتو ليضحي ذرّةً من حقوق الكنيسة لارضاء خاطرها لكنهُ كان يظهر في كل حين مراعاتهُ لقوانين البلاد ويتحاشى كل ما يخرجهُ من دائرته الدينية ويحرّض الجميع على العيشة الولائية والاتحاد في المشروعات الآئلة الى ترقي الوطن وتحسين احوالهِ مادياً وادبياً حتى اثنت الحكومة على همّتهِ واخذت تعضدهُ في مساعيه الخيرية ودعتهُ الى بعض الاحتفالات ليرأسها كمثّل الكنيسة فتولى بركة سفينة جديدة جُرّت الى البحر بعد ان كرّسها الكردينال بصلوات الكنيسة في حفلة عظيمة

وهو الذي جدّد عادة كانت أُلغيت منذ سنين مديدة وهي بركة القربان تُعطى

سنويًا لمياه البحر بحضور كل اهل المدينة برونق بهي بعد ان يُطاف بالقربان الاقدس بالانوار والشموع وطاقات الزهور والترنم بالتسابيح التقوية حتى يبلغ الموكب الى محل يشرف على ساحل البحر فيباركهُ البطريرك ويبارك كل القوارب المزدانة بالرايات التي تزدحم فوقهُ

وما اكتفى بهذا بل اراد في السنة ١٨٩٧ ان يجعل البندقية كرسي لوبّ القربان تتقاطر الى اكرامهِ الشعوب المسيحية من كل اقطار العالم فانّ المظاهرات الجليلة التي حدثت آخرًا في مدينة لندن سبق الكردينال سرتو واجراها وقتئذ في مدينته البطريركية فعقد اللجنات واستدعى كل اكليروسهِ القانونيّ والعالميّ وقسّم بينهم الاشغال لإعداد مؤتمر قربانيّ يبقى ذكرهُ على صفحات التاريخ على مدى الازمان. فبعد التأهبات اللائقة وجد الكردينال البندقية مستعدّة لهذه الاعياد الحافلة فافتتح المؤتمر في ٨ آب في وسط جماهير بجمهرة اقبلت من اقاصي البلاد لحضور تلك الحفلات الفخيمة الآخذة بمجامع القلوب. وقد حضر هذا المؤتمر اربعة كرادلة و ٢٨ اسقفًا وعدد لا يحصى من كهنة ومؤمنين من بلاد وطوائف مختلفة وتواصلت الاعياد والطوافات والجلسات الادبية اربعة أيام متوالية اصبحت فيها البندقية صدى لمحامد إله القربان وعجائبه. وكان الكردينال سرتو قد انشأ في ردهات واسعة وقاعات فسيحة معرضًا جامعًا لكلّ اصناف الآثار الدينية المختصّة بالقربان الاقدس من حليّ ومصاغات وجواهر وآنية ثمينة وتصاوير وحلل كهنوتية فكنت ترى الالوف من الزوّار يتقاطرون الى منظر هذه الكنوز ويقضون العجب من محاسنها

وكان الكردينال مدّة السنين العشر التي جلس فيها على كرسي البندقية قد اضحى كنفس كل المشروعات الجليلة وكل الاعمال الخطيرة فلا تكاد تجد اليوم في تلك الحاضرة مشروعًا الّا ولهُ فيهِ يدٌ فانّهُ اهتمّ كما في ترقية روح التقوى في اصلاح مدرستهِ الاكليريكية وترقية تلامذتها في معارج النجاح بل صرف نظرهُ الى كل مدارس المدينة ليراقب فيها التعليم الدينيّ وتهذيب الاحداث على سُنن الآداب

ولمّا رأى الاخطار الناجمة عن الجرائد الكفريّة المناقضة للآداب لم يعرف الراحة حتى انشأ جرائد كاثوليكية تقوم في وجهها فتفلح الحديد بالحديد وتُبطل بأجوبتها اضاليل الملحدين فيعمل بذلك الجرائد انصارًا للدين والآداب. وبهذه الطريقة

نشط حزب المحافظين وعرف الكاثوليك قوتهم وضعف اعدائهم فلم يزالوا يزيدون عددًا وفضلًا في مدافعتهم عن عقائدهم حتى تمكنوا في السنة ١٨٩٥ ان يدخلوا في مجلس البلدية عددًا وافرًا من نُصرائهم فرجحت بذلك الاعمال النافعة للبلاد وتعزّز روح الدين وزهق الباطل

فكل هذه المآثر واعمال أخرى عديدة لا يسمح لنا ضيق صفحات المشرق بتعدادها جعلت حياة الكردينال سرتو في اعين المعاصرين كشبه صرح شاهق يستدعي له تاجًا يزينه فيصبح تامّ المحاسن مستوفي البهاء والرونق وما كان يعرف احد غير الله ما عسى ان يكون ذلك التاج لمثل هذا البناء. واسرار الله لا يدركها بشر

*

في ٢٣ نيسان من السنة ١٩٠٣ هبط في البندقية برج قديم يُعدّ من آيات البناء طوله ٢٨ مترًا كان يزين كنيستها الكاتدرائية المشيدة على اسم القديس مرقس الانجيلي. فكان لهذا الحادث دويّ عظيم ورنّة حزن في قلوب كلّ البندقيين الّا انّ تحمّسهم الديني لم يسمح لهم بان يتركوا على الحضيض آثار بنائهم الشامخ وما مرّ عليهم ثلاثة اشهر حتى جمعوا النفقات لاستئناف ذلك البرج الفريد. وكان الكردينال سرتو يتقدّم الجميع في هذا العمل كما في سائر الاعمال الشريفة فدعت الحكومة رسميًا لوضع الحجر الاول لهذا الأثر الجديد فعمل في حفلة افاضت الجرائد في وصف جلالها ومحاسنها فكان هذا العمل خاتمة مآثره في البندقية

وفي تلك السنة عينها هبط في رومية بعد الصرح البندقي ببضعة اسابيع برج آخر اشرف واشمخ من السابق برجٌ حيّ اقامهُ الله لانارة الشعوب لاون الثالث عشر اكبر رجال عصره. فما كانت الكنيسة لترضى بتيتّمها فتألّبت زعماؤها واستدعت لادارة سفينة بطرس ذاك الربّان الذي وطّن نفسهُ على اهوال البحر في البندقيّة عند اقدام مرقس تلميذ بطرس ليكون هو البرج الحيّ الذي ما كان البرج البندقي سوى رمزه وصورته

وهاك اليوم قد مرّ على هذين البرجين ست سنوات. وقد كاد البرج الاول يبلغ ذروتهُ فيتشع به البندقيّون الى ما شاء الله والى ما تصبر عليه آفات الدهر. اما الثاني

فأملنا ان يطول سنين عديدة بعد فيبلغ سني بطرس كسلفيه السابقين. وعلى كل حال انَّ ما رأيناهُ من محاسن هذا البرج الفخيم حتى هذه الساعة يكفي ليجتذب اليهِ كل الامم ويدلَّ الشعوب على ذلك الجبل الذي فيه خلاصهم. قال النبي (ميخا ٤ : ١—٣) : «ويكون في آخر الأيام انَّ جبل بيت الرب يوجد في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري اليهِ الشعوب وينطلق امم كثيرون ويقولون هلمّوا نصعد الى جبل الرب وبيت إله يعقوب وهو يعلمنا طرقهُ فنسلك في سبلهِ . . . فيحكم بين الشعوب الكثيرين ويقضي للامم الاقوياء»

على هذا الجبل العالي قد وُضع صرح پيوس العاشر وقد حقَّق كاسلافهِ في شخصهِ كل ما تنبَّأ عليهِ ميخا في هذه الآية المجيدة. قُل ناشدتك الله اي شعب لم ينطلق اليهِ في سائر جهات المعمور ليس فقط من الامم الكاثوليكية بل من كل القبائل والنحل فقد دخل الواتيكان لزيارة پيوس العاشر ملوكٌ بروتستانت كملك انكلترة وامبراطور المانية وشتيقيها وملوكٌ روم كملك اليونان واتتهُ وفود الدولة العلية وتونج والصين واليابان وكورية والحبشة. اليهِ احتكم الخصوم حتى اصحاب الممالك والدول. وهو الذي قضى للامم الاقوياء. ورآيتهُ الرسولية مفعمة بالتعاليم الصادقة التي بها يعلّم الناس ان يسلكوا في سبل الرب فانهُ منذ تبوئهِ للسدَّة الرسولية قد حرَّر خمس عشرة رسالة عموميَّة لكل البطاركة والاساقفة والمؤمنين في العالم كلهِ ليتمم وصيَّة الرب الموجَّهة اليهِ في شخص النبيّ (ارميا ١ : ١٠) حيث قال: «اني قد اقمتك في الامم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس» فكم من جراثيم الضلال استأصلها من حقل الكنيسة وكم من اركان البطل والفساد نقضها وابادها. وكم غرسَ في حديقة البيعة من اشجار مثمرة وكم شيَّد من الابنية العامرة

فانهُ بصفة كونهِ اسقف رومية الخاصّ باشر بتدبير كل امورها الروحيـة كي لا يفوت حتى الصغير من ابنائهِ شيء من الصلاح فواجه كهنة الرعايا وبلَّغهم وصاياهُ ولم يزل يهتمّ بشؤونهم بعناية عجيبة ليكون المؤمنون في حاضرة الكثلكة قدوة لبقيهم في بقيَّة المعمور

ولكون البابا پيوس رئيس اساقفة سواد رومية وملحقاتها وجَّه عنايتهُ الى هذا

القسم من حظيرتهِ واهتمَّ بهِ اهتمامهُ برومية نفسها ووكل الى الكردينال نائبهِ بان يزورها باسمهِ ويتلافى امورها ويعرض عليهِ كل لوازمها الروحية والزمنيَّة

ومن حيث هو جاثليق ايطالية لم يدع شيئاً مما رآهُ لائقاً لانماء روح الدين في جاثليقيَّتهِ ولهُ الى اساقفة ايطالية المناشير المفعمة براً وغيرة لتهذيب الاكليروس ولتلقين المؤمنين بالمبادئ الدينية ولمحاصبة الشيع السريَّة ولتوحيد عمل الكاثوليك مع اساقفتهم. وكان بيوس العاشر مع فقرهِ اوَّل من بادر الى مساعدة المصابين بالزلازل في جبال كلابرية وصرف المبالغ الطائلة في ترميم كنائسها المتداعية

وكبطريرك الاقطار الغربية لم يبرح عن فكرهِ بلد من تلك البلاد دانيها وقاصيها وليس بوسعنا ان نعدّد هنا دلائل عنايتهِ الى فرنسة والمانية والنمسة وانكلترة وروسية وبلجكة وهولندة والدنيمرك واسوج ونروج. فانَّ المشرق ذكر شيئاً من ذلك في نظرهِ السنويّ العامّ عن اهم الحوادث الجارية في اوربَّة

لكنَّ بيوس العاشر هو فوق كل ذلك ابو المؤمنين ورئيس الكهنوت وامام الاحبار وخليفة بطرس الرسول ونائب المسيح فانَّ عنايتهُ لا يمكنها ان تنحصر في زمن او مكان واحد بل تشمل كل كنائس العالم كالشمس تُرسل اشعَّتها على كل الاقطار وليس من يتوارى من حرّها ونورها. ولو اردنا هنا اثبات اعمال حبرنا من هذا القبيل لتوفَّرت الادلَّة واتَّسع المجال وقد ألمَّ المشرق بذلك ايضاً في وصف حوادث كل عام وحسبنا ان نذكر هنا اصلاحهُ للغناء الكنسيّ واوامرهُ في شرح التعليم المسيحيّ في كل اسبوع وتنشيطهُ للمواظبة على الاسرار المقدَّسة لاسيما التناول المتواتر وتشذيبهُ للاضاليل العصريَّة وغير ذلك مما لم يبرح عن ذكرى قرَّائنا

ونحن احقر ابناء قداستهِ لا يمكنَّا ان ننسى ما خصَّ بهِ رسالتنا السوريَّة وكليَّتنا اذ بارك اعمالها في سبيل الله وخدمة الكنيسة من تعليم وتهذيب وتأليف وقد بلَّغنا هذا الانعام برقيم شريف من يد كاتم اسرار دولته ثم كرَّر بركتهُ ثانياً وثالثاً بعبارات طافحة من الحبّ الابويّ لحضرة الاب لوسيان كاتين رئيس كليَّتنا لمَّا تشرَّف بالمثول امام عرش قداستهِ في حزيران الماضي

أمَّا كنائسنا الشرقية فقد نالت اوفى حصَّة من اهتمام قداستهِ كما اعلن بالامر بطاركة طوائفنا الاجلَّاء بمناشيرهم. ولا يزال صدى الحفلات البهيجة التي اقيمت

في هذا العام تذكارًا للسنة الخامسة عشرة من وفاة فخر الكنيسة الشرقية يوحنا فم الذهب يتردد على مسامعنا. وقد تنازل كبير الاحبار ان يشارك الكنيسة اليونانية بالتقديس فخوّل ابناءها شرفًا قدروه قدره

فيا لله ما اعلى مقام الكنيسة الرومانية التي يمجدها الله باحبار لا يُشق لهم غبار ويقصر عن ادراك شأوهم كل سيار. ولا غرو فانّ هاماتهم يزينها ذلك التاج المثلث الذي يرمز الى مل‌ء سلطتهم كقضاة الارض وائمة الدين ونواب الله في عالمهِ. فلتحيَ كنيسة الله وليحيَ رأسها المنظور ولتسرع الى حظيرة المسيح الخراف الضالة لتكون قريبًا ان شاء الله رعيّة واحدة وراعٍ واحد

صدى المشرق

تُرفع الى دكن الكنيسة البابا بيوس العاشر

تهنئةً بيوبيلهِ الذهبي

من نظم المعلّم الفاضل يوسف افندي الفاخوري احد اساتذة كليتنا

يُحيّيك آلُ الشرق يا نائبَ الربِّ	بعيدك عن ودٍّ تلظّى به قلبي
تحيّيك اجدادٌ يطيبُ ترابها	رضاك عن الشرق البعيد عن الرُّعب
تحيّيك آباءٌ أبوا كلَّ مذهبٍ	يناهض شرع الله في العُجم والعُرب
تحيّيك ابناءٌ على الحقِّ قد سروا	وما كان منهم خائف اللوم والعتب
يحيّيك لبنانٌ ومن ضمَّ ارضهُ	وما انبتت غرسًا يحنُّ الى السُّحب
وتلثمُ اقدامًا وطئت بها الثرى	فباركتهُ فاعتزَّ تيهًا على الشُّهب
لانَّ بكَ الدين الصحيح ممتَّعٌ	وإيماننا حيٌّ يصانُ من العطب
تنوبُ عن الرب المهيمن راعيًا	تغذّي بنيه باذلًا مهجة القلب
كذا بطرس قد كان قبلك هاديًا	وقبلك احبارٌ تفانوا بذا الحب

فانت امامٌ لا امام يفوقهُ تنفّذُ ما يقضي حجاك يدُ الربِّ
تذلُّ ملوك الارض عندك هيبةً وتبجيل عرشٍ لم ينلْ مدى الحقبِ
وتأتيكَ اربابُ العلوم بخشيةٍ فتغنمُ منك النصحَ عفواً بلا نُصبِ
بقولك لم تخطأ وذلك عصمةٌ ومن قبلك النوابُ كانوا بذا الاربِ
اذا صالَ ما بين القبائل موجعٌ وليس له عند العوالم من طبِّ
اتوكَ وقد سادَ القنوطُ وراءهم فتبدي لهم رأياً احدَّ من العضبِ
وتخضعُ من ضلَّ السبيل بكلمةٍ يكونُ لها وقعٌ اشدَّ من الضربِ
وان يبدُ ضغنٌ بين شعبٍ وامةٍ وبسطٌ في حزبٌ يسودُ على حزبِ
فتأبى عليهِ ان يصول بحكمةٍ سليمانُ لم يحصلْ عليها من الربِّ
هناءٌ بلا جدٍّ ورغدٌ بلا عنا ورفدٌ بلا ظلمٍ ينالُ ولا غصبِ
وأنتَ حلاّلُ العظائم عادلٌ سلامٌ وامنٌ للبلادِ والشعبِ
خدمت الملا خمسين عاماً قد انقضت بكهنوتك المحيي الموات من الترب
سعيت لنا بالخير تهدي نفوسنا وقد ربّيتها رُشداً ترفَّعَ عن سلبِ
لذاك نرى مجدَ الكنيسةِ ناضراً وخير بنيهـا دائم الفطل والسكبِ
أيا صخرةَ الدين المحصّن قومهُ تهاديكَ اشواقاً تدور على قُطبِ
ونهدي اليك التهنئات وانها من الودِّ باقاتٌ تُرَفُّ على رحبِ
هنيئاً لك العيد الذي لنا الهنا هنيئاً لمصرٍ شامَ نورك عن قُربِ
فرومةُ تسمو كلُّ قطرٍ يزينها ومن حبّها تعلو بذا المجدِ والعجبِ
فيوبيلك الميمون انير بدرها ونوَّر ارض الله في الشرقِ والغربِ
فلا زلتَ والدينَ الجليل معززاً تديل لنا خصباً من القحط والجدبِ
وتقطعُ اعواماً وتسلك غيرها توالى سنوك الغرُّ عقباً على عقبِ

بيوس العاشر ومرصد الفاتيكان

نظر الاب لويس شيخو اليسوعي

في سنتنا السادسة من المشرق (ص١٥) زيَّفنا مزاعم احدى المجلات المصريَّة التي نسبت زورًا الى الكنيسة تقصيرها في تدريس علم الهيئة والنجوم وفي وضع المؤلفات الفلكيَّة. ولو اردنا لاستقرينا اسماء الاحبار الاعظمين فتتبَّعناهم فردًا فردًا منذ اجيال متعدّدة واثبتنا ما لكلٍّ منهم من الفضل في النهضة العلميَّة عمومًا وفي تعزيز العلوم الفلكيَّة خصوصًا. وانَّما نجتزئ بمثال الحبر الاعظم الحالي الذي زعم البعض عند ارتقائه الى الخلافة البطرسيَّة انهُ ليس من رجال العلم فلا يعير العلوم بالًا

بنى اولئك الكتبة قولهم على الحدس والوهم ولو عرفوا تفاصيل حياة الكردينال سرتو لما تجاسروا ان يفوهوا بمثل هذا الكلام. ولنا برهان لامع لتأييد قولنا في المرصد البابوي الذي جعلهُ من اخص مراصد اوربَّة واغناها بالآلات الفلكية

أُنشئ المرصد الفاتيكاني في القرن السادس عشر لمَّا اصلح البابا غريغوريوس الثالث عشر الحساب السنوي المنسوب اليهِ فعهد البابا الى احد الرهبان الدومنيكيين اسمهُ اغناطيوس دنتي ان يرصد دوران الشمس ويضبط حركاتها تلافيًا لكل غلط في الحساب فامتثل الامر وابتنى برجًا عاليًا جعل عليهِ بنكامًا كان ظلُّه يدلُّ على حركات الشمس عُرف ذلك البرج بالبرج الغريغوري وزيد فيهِ بعض التحسينات في ايام خلفائهِ وجُهز بآلات جديدة. لكنَّ موقع هذا المرصد في ظلّ قبَّة كنيسة مار بطرس لم يكن موافقًا لرصد الكواكب فنال الاب بسكوفتش الفلكي اليسوعي ان ينقل رصودهُ الى محل آخر فاتخذ لها سطوح كنيسة القديس اغناطيوس عند مدرسة اليسوعيين الكبرى الشهيرة بالمدرسة الرومانية فجهّز هناك الآلات الفلكيَّة واجرى الرصود بكل دقَّة حتى صار لهذا المعهد العلمي شهرة واسعة في كل انحاء اوربَّة. والتآليف العديدة التي وضعها ذلك النابغة تشهد الى يومنا على طول باعه ووفرة معارفه

ثم خلفهُ اليسوعيون في ادارة مرصد المدرسة الرومانية وزادوا في تحسينه وبلغوه مقامًا قلَّما بلغتهُ المراصد الدولية نفسها لاسيَّما في عهد الاب انجلو سكّي (اطلب المشرق

٦:٦٦١–٦٧٠) نسيج وحده في العلوم الفلكية الى ان استولت الحكومة الايطالية على هذا المرصد بعد وفاة الاب سكي المذكور (سنة ١٨٧٨)

امّا المرصد البابوي في حدائق الفاتيكان فلم يُهمل بانشاء مرصد المدرسة الرومانية وانّما خُصّ بفروع أُخرى من العلوم الفلكية غير رصد الافلاك وخصوصاً برصد الظواهر الجوّية كالحرارة والبرد وثقل الهواء واليبوسة والرطوبة والمطر والصحو فاكبَّ السيّد فيليبو جيلي (F. Gilii) صبّاً عظيماً من السنة ١٨٠٠ الى ١٨٢١ فلمّا مات بقي هذا المرصد خاملاً لشهرة المرصد الروماني

لكنّ سقوط مرصد اليسوعيين في ايدي الايطاليين استلفت انظار الكرسي الرسولي الى مرصد الفاتيكان القديم فنوى البابا لاون الثالث عشر باحيائهِ. فلمّا كانت السنة ١٨٨٧ التي بها جرت حفلات اليوبيل الكهنوتي لذلك الحبر الجليل فصرّح البابا من نيّتهِ للعالم الكاثوليكي بتجديد المرصد المذكور فاسرع الكاثوليك وتبرّعوا بمبالغ طائلة لتجهيز ذلك معهد العلم بالادوات المناسبة له. فعيَّن الاب الاقدس لادارة المرصد فلكيّاً شهيراً من الرهبنة البرنبيّة يدعى دَنْزا فرمّم البناء القديم واعدّ كل المعاهد والقاعات لتنظيم الادوات. وجعل في تلك الغرف الواسعة مكتبة كبيرة للتآليف الفلكيّة ثم رتّب فيها المتاحف المختصّة بالفلكيّات وجهّزها بتجهيزات أُخرى موافقة للمشروع

ولمّا كان موقع المرصد القديم لا يكشف على كل جوانب السماء خصّ البابا لاون برجاً آخر كان شيّدهُ احد اسلافه البابا لاون الرابع (٨٤٧–٨٥٥) لردّ غارات العرب عن المدينة المقدّسة علوّهُ خمسة وعشرون متراً وقطرهُ في اسفله ١٧ متراً فنظم فيه الاب دَنْزا آلاته الفلكية كالربع والسدس ونظّارة العبور ونظّارة الهاجرة والآلات المجهرة والمقاييس المختلفة لحركات الشمس والكواكب والسيّارات والزلازل الارضية وغير ذلك من الادوات المستحدثة التي رقّت العلوم الفلكية الى درجة رفيعة وألحقها بكل الادوات الفوتغرافية لرسم الكواكب والبروج والسيارات. ولمّا عرض الفرنسويون على مراصد اوربة الكبيرة بان تتّفق على رصد اقسام من كواكب السماء لرسم خارطة سماوية كاملة نال المرصد الفاتيكاني حصّته من هذا العمل الخطير واستجلب الاب دَنْزا نظّارة للعبور ذات ثلاث شبحيّات من ابدع الآلات الرصديّة وباشر بالعمل الذي لا يتمّ الّا بعد سنين عديدة واشغال شاقّة اذ لا يقلّ عدد الكواكب المنظورة عن مئة الف

فيُقتفى رسمها بدقّة وضبط وجلاء ليمكن الفلكيين كلهم الرجوع اليها في مراصدهم. ولو لم ينل المرصد الفاتيكاني غير هذا الشرف الوحيد لكفاهُ فخرًا في خدمة العلوم الفلكية . لكنْ عمدتهُ اخذت تنشر مع ذلك نشرات علمية تبادلها مع نشرات المعاهد الدولية في كل ضروب العلوم الفلكيَّة

ثم جلس بيوس العاشر على الاريكة البطرسية فكانت همّتهُ في خدمة المعارف كهمّة اسلافه ومن آثارهِ اللجنة التي شكّلها في رومية لتنشيط العلوم ومساعدة العلماء الكاثوليك في كل اصقاع المعمور . ولما توفي مدير المرصد الفلكيّ الاب دَنْزا استدعى الحبر الاعظم من اسبانية احد رهبان القديس اوغسطينوس اسمهُ رودريكس لمواصلة اعمال الاب دنزا تحت نظارة السيد مافي رئيس اساقفة بيزة ومدير مجلّة العلوم الرياضية والطبيعيَّة لكنَّ الاب رودريكس اضطُرَّ بعد قليل ان يعود الى اسبانية فلم يجد الحبر الاعظم اجدر بهذا المنصب من احد ائمة العلوم الفلكية في أيامنا وهو الاب ي. ج. هاغن (J. G. Hagen) مدير مرصد اليسوعيين في جرجتون من الولايات المتحدة الذي اكتشف الاكتشافات العديدة وألف التآليف الفريدة

فما تسلَّم الاب هاغن نظارة المرصد الفاتيكاني حتى تعهَّد مع السيد مافي كل مكاتب واجهزة المرصد الفاتيكاني وعاينا نقصهُ ثمَّ عرضا على بيوس العاشر اصلاحات وتحسينات جمّة لئلا يتخلَّف هذا المقام العلمي عن بقيّة المراصد الدولية

وكان اوّل ما يحتاج اليه المرصد صرحًا ثالثًا في مكان معتزل عن ضوضاء المدينة يصلح لرصد الافلاك ويُجهَّز بنظارات جديدة . فاجاب الحبر الاعظم الى ملتمسهما وافرد للرصد قصرًا في اعلى حدائق الفاتيكان يُشبه الصرح اللاوني السابق ذكرهُ وكان البابا لاون الثالث عشر ينتقل اليه لارتفاع طبقاته في اشتداد حمارّة القيظ من تموز الى تشرين ترويحًا للبال . اما بيوس العاشر فأخلى ذلك المصيف لخدمة العلم وقد دُعي هذا البرج اجلالًا للمتبرع به برج بيوس العاشر

ثم انَّ الرئيس العامّ على الآباء اليسوعيين في رومية اهدى امام الاحبار نظّارةً فلكيَّة موافقة لرصود هذا البرج الثالث وهي تدوّن من تلقاء ذاتها حركات الفلك وترسمها بالفوتغراف والنظّارة من معمل مرتس (Mertz) الشهير في مونيخ . وقد ركّبت هذه النظّارة تركيبًا محكمًا بحيث لا تؤثر فيها حركات الارض

وفي الطابق الاسفل قاعة كبيرة جعلها البابا متحفاً لمجموعين فريدين في جنسهما احدهما مجموع المعادن الذي اهداه البارون الفرنسوي موروا دي فاري (Mauroy de Varry) الى قداسة البابا لاون الثالث عشر وفيه قطع عزيزة الوجود من معادن كثيرة مع ما اضافة اليه عالمان بلجكيّان من كليّة لوفان بحيث اصبح هذا المجموع المعدني من اغنى المجاميع المعروفة في أيامنا. أمّا المجموع الثاني فهو اعزّ واغرب من السابق وهو مجموع رجوم اي حجارة تساقطت من الجوّ والافلاك على ارضنا ولهذه الحجارة خواصّ شتى يُقبل على درسها العلماء لمعرفة تركيب الاجرام الفلكيّة. وسيُجعل مجاميع أخرى علمية ثمنة في هذا المتحف عند نجاز تنظيمه

ومن المعلوم انّ اشغال المرصد الفلكي لا يتمّ بسهولة اذا تفرّقت الادوات وتقسمت في امكنة متباعدة عن بعضها وابتعد العمّال والمستخدمون فاستدراكاً لهذا النقص أُفرغ القصر الغريغوري من كل تجهيزاته الفلكية التي نُقلت الى البرجين الحديثين ثم فُتح بينهما معبر تسهيلاً للمواصلات ومُدّت بينهما الاسلاك التليفونية والكهربائية حتى اصبحا كرصد واحد تجري فيه كل الاعمال على وتيرة واحدة وبكل ضبط وتدقيق دون انقطاع عن العمل آناء الليل واطراف النهار

وممّا جاد به كرم بيوس العاشر ابتناء قبة كبيرة زجاجية مجاورة لغرفة الرصود لاجراء كل التصاوير الفلكية واستحضارها. وكان للاون الثالث عشر حجرة خاصّة قريباً من هناك كان عُني بنقشها نقشاً بديعاً يمثّل البروج والكواكب فجعلها بيوس العاشر مكتباً للمدير ولمعدّته. وقد ندب الاب هاغن الى مساعدته احد اخوته الرهبان اليسوعيين الهولنديين اسمهُ ستَين (Stein) يستعين به لمراقبة الافلاك مع الاب لايس (Lais) من الجمعيّة الاوراتوريّة

والحبر الروماني يعتبر هذا العمل كاحد مفاخر ملكه فكثيرًا ما يزور المرصد ويأنس باصحابه ويهتمّ بكل حاجاتهم ولوازمهم لكي يصبح هذا البناء صرحاً عاليًا اهلًا بالكنيسة ناصرة الدين والعلم معاً منذ اول النصرانية. وقد امر قداستهُ آخرًا ان يُبنى للنظّارة الفلكية الكبرى قبّة عالية ليديرها وكلاؤها كيف شاؤوا في كل وجوه السما. فقد زار هذا المرقب الفلكي احد مشاهير علماء عصرنا في المانية فقال وهو بروتستاني النحلة: « قد كذب الذين ينسبون الى الكنيسة الرومانية قلّة عنايتها بالعلوم

فانَّ المرصد الفاتيكاني شاهد عياني على «ايبذة البابا الحالي في جانب العلم الفلكي ومن يتصفَّح سجلات الفاتيكان يتحقَّق انَّ الاحبار الرومانيين نشروا في كل الآونة رايات العلوم وتقدَّموا بها الشعوب الاوربية»

إرْعَ خرافي إرْعَ نعاجي

(يوحنا ٢١: ١٥–١٨)

درس لاهوتي للاب يوسف ديلسفر مدرّس الاسفار المقدَّسة في كليَّة القديس يوسف

ليس في حياة السيد المسيح ساعةٌ اجلَ واخطر من ساعة وقوفهِ بين تلاميذهِ على مقربة من بحيرة جنَّاسر عند تلك المغاور المنقورة في الصخور الشاهقة المشرفة على قيساريَّة فيلبُّس حيث كانت تنتصب اصنام الامم كأنَّها باسطةٌ ملكها الجائر على ارض الميعاد بل على كل انحاء المعمور

فهناكَ وقف عند تلك المناظر المهيبة واراد المقابلة بين ملك الجحيم المتقوّض الزائل وملكهِ الناشئ الثابت الى الابد. فسأل اوَّلًا تلاميذهُ عمَّا يقول فيهِ البشر ولمَّا اوقفوهُ على آرائهم وجَّه اليهم بالسؤال عينه وطلب منهم ان يكشفوا رأيهم في شخصه الكريم فبادر الى الجواب سمعان بطرس معترفًا بكونهِ هو المسيح ابن الله الحيّ. وكل مسيحي يعلم كيف طوَّب المسيح لسمعان بن يونا ونسب كلامهُ ليس للحم والدم. بل لابيه الذي في السماوات واردف قولهُ بذلك الوعد العجيب الذي ما كان ليخطر في قلب بشر قائلًا: «انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي وابواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما حللتهُ على الارض يكون محلولًا في السماوات وكل ما ربطتهُ على الارض يكون مربوطًا في السماوات» (متى ١٦)

ذلك هو وعد السيد المسيح وعدٌ صريحٌ علنيّ امام اثني عشر شاهدًا لا يشوبهُ ريب ولا يقيّدهُ حصر لا بل ينطبق مع سوابق أخرى ولواحق رواها الانجيليُّون تثبت هذا الوعد وتؤيّدهُ منها قول الرب لبطرس في اوَّل دخوله عليه (يوحنا ١: ٤٢): «انت سمعان بن يونا انت تُدعى كيفا الذي تفسيرهُ الصفاة». وقولهُ لسمعان ايضًا (لوقا ٥:

١٠) : « لا تخفْ لأنك من الآن تكون صائدًا للناس » . وتأكيد المسيح له (لو ٢٢ : ٣٢—٣٣) : « انهُ نجاهُ من غربلة الشيطان بصلاته لاجلهِ لئلا ينقص ايمانهُ بل يثبت اخوتهُ » . وكذلك كرامة الرب له اذ اعتبرهُ كنفسهِ واعطاهُ ما يفي بهِ حقَّ الجباية عن كليهما دون بقيَّة التلاميذ لمَّا امرهُ ان يصطاد سمكةً يجد في فيها استارًا (متى ١٧ : ٢٤—٢٧) . فليس لعمري في الانجيل الطاهر ما ينقض وعد الرب او يريبهُ او يضعفهُ البتة

فليت شعري أنسي المسيح وعدهُ او بقي اسمًا دون جسم او لفظًا فارغًا دون معنًى ؟ معاذ الله ان تنسب الى السيد المسيح الحنث بوعدهِ فانَّ مواعيد الله ثابتة الى الابد ولو سقط منها حرفٌ واحد للحقت بجلاله وصمة النقص تعالى الله عمَّا يقولهُ الكافرون

فمتى اذن قام السيد المسيح بوعدهِ ؟ واين الادلَّة على انَّ تلك المواعيد خرجت الى حيّز العمل ؟ أكان ذلك سرًّا او علانيةً ؟ أصرَّح به تصريحًا او سترهُ تحت حجاب المجاز والتلميح ؟ انَّ الجواب على ذلك في الفصل الاخير من انجيل يوحنا الحبيب حيث يُعلن جهارًا بأنَّ شهادتهُ شهادة عين ويتخذ الله كشاهد على صحة قوله

ففي ذلك الفصل ذكر الانجيلي كيف تبع بطرسَ اخوتهُ لما قصد الصيد في بحيرة طبرية ثم ذكر حضور الرب بينهم عند الصبح ومعرفتهم له بعد صيدهم العجيب ومنازلة لمشاركتهم في غذائهم حتى قال (يو ٢١ : ١٥—١٧) : « فبعد ما تغدَّوا قال يسوع لسمعان بطرس : يا سمعان بن يونا اتحبني اكثر من هؤلاء . فقال له : نعم يا رب انت تعلم اني احبك . قال له : ارعَ خرافي . قال له ثانيةً : يا سمعان بن يونا اتحبني . قال له : نعم يا رب انت تعلم اني احبك . قال له : ارعَ نعاجي . قال له ثالثةً : يا سمعان بن يونا اتحبني . فحزن بطرس لانهُ قال له ثالثة أتحبني . فقال له : يا رب انت تعلم كل شيء وانت تعلم اني احبك . فقال له : ارعَ غنمي »

فهذه الآية المجديَّة قد لاحت في سماء الكنيسة كالنجم اللامع والبدر الساطع فاستضاء بنورها كل طالب حقٍّ لم تُغشِ قلبهُ غشاوة الاهواء . وكثيرًا ما سعى اصحاب السفسطة ان يطمسوا نورها او يحجبوها بسُحب الاوهام فذهبت مساعيهم سُدًى وما افادت غاراتهم الَّا ان يتبيَّن كل عاقل خالٍ من الاغراض ما فيها من القوَّة الالهية التي لا تهدُّ ركنها قوَّة بشريَّة ايَّةً كانت

فدعنا نعرض هذه الآية على محكّ الانتقاد ونسبرها بمسبار الروية فنبيّن جوهرها الصافي وعنصرها الشريف ثم نستقي لاستجلاء حقيقة معناها ما كتبهُ آباء الكنيسة لاسيما الشرقيين على اختلاف بلادهم ولغاتهم وازمنتهم ونعقّب ذلك بشهادة الطقوس والرتب الكنسيّة والآثار الدينية التي تفسّر هذه الآية وتوضحها باجلى بيان واقوى برهان وتثبت كلّها بلسان واحد انّ المسيح خوّل الرسول بطرس السلطة التامة على بيعته ليسوسها ويدبّرها ويرعاها كالراعي لخرافه والرئيس لمرؤوسيه

١ شرح الآية في منطوقها وقرائنها

انّ الآية التي اوردناها بحرفها الواحد لا تكاد تدع مجالًا للسفسطة والوهم الّا لنْ نورها يتقد اتقادًا اذا ما لاحظتَ دقائقها واعتبرت قرائنها

اولًا لا شكّ في انّ السيد المسيح يخاطب بطرس في هذه الآية كما فعل في آية الوعد السابق ذكرها ويخاطبهُ وحدهُ مميّزًا له عن سائر رسله اذ يسألهُ عن محبته لشخصه الكريم فوق محبة بقية التلاميذ

ثانيًا ينادي الرب بطرس باسمهِ الخاصّ وباسم ابيه: «يا سمعان بن يونا» كما ناداهُ عند وعدهِ بالرئاسة وكما ناداهُ اولًا لمّا غيّر اسمهُ سمعان بكيفا. وفي هذه الآيات الثلاث اشارة واضحة الى انهُ اراد ان يخوّلهُ نعمةً خاصّة به لا يقاسمهُ بها غيرهُ ألا وهي نعمة السلطان على كنيسته كما يظهر بمقابلة هذه الآيات بعضها

ثالثًا ومما يدلُّ على انّ تقليد المسيح لبطرس الرعاية على كنيسته انّما هو تقليد شخصيّ انهُ يكرّرهُ ثلاثًا كما كرّر بطرس ثلاثًا اقرارهُ بمحبته. واقرار بطرس كما لا يخفى انّما كان عن نفسه لا عن اخوته الرسل وان لم يصرّح بذلك تواضعًا بعد سقوطه لئلّا يفضّل نفسهُ على احد كما فعل فيغشل تكن كلامهُ يشعر بانّ محبتهُ ليست دون محبّة غيرهِ. فجزاء لاعترافه بمحبته الشخصية يمنحهُ الرب ايضًا هبة شخصيّة اي السلطان المطلق على رعيّته

رابعًا ويظهر الامر بوضوح اعظم اذا اعتبرت سؤال السيد المسيح لبطرس فمن يا تُرى يتجاسر ان يقول بانّ الرب عند استعلامه عن محبّة تلميذهِ انّما سألهُ عن محبة لفيف الرسل وفي الآية ما ينفي ذلك تمامًا وكفى بحزن بطرس على تكرار الرب عليه

السؤال عن محبته اذ ظنَّ بانَّ الرب شكَّ في صدق قوله حتى انَّ بطرس لستشهد بمعرفة المسيح لكل شيء وبعلمه الالهي. فان كان الامر كذلك والسؤال لبطرس دون غيره أفما كان يجب ايضاً ان يكون الجواب لشخصه دون غيره من الرسل ولولا ذلك لما كانت نسبة وتلاحم بين قول المسيح وقول تلميذه اذ يبوءُ بمحبته الشخصية ويُعطى إنعاماً يعمُّ الجميع

خامساً ويستدلّ من هذه الآية ايضاً انَّ السيد المسيح جعل تحت قيادة بطرس كل قطيعه دون استثناء. لانهُ سلَّمهُ غنمهُ وسلَّمهُ خرافهُ ونعاجهُ وفي النصّ اليوناني ثلاثة الفاظ تشمل كل ما يتألف منهُ القطيع اعني الخراف والنعاج والحملان صغيرةً وكبيرةً بحيث لا يستطيع احدٌ من المؤمنين ان يخرج عن سلطة بطرس ما لم يرضَ ان يكون خارجاً عن قطيع المسيح

فهذه الملحوظات تتبادر الى فهم كل من يطالع هذا النصّ خالياً من كل غرض شخصيّ. والبروتستانت انفسهم الذين عادةً ينكرون الحجج التي يستند اليها الكاثوليك في تأييد قضيَّة رئاسة بطرس لا يمكنهم عند شرح هذا المحل ألّا الاقرار بمعتقدهم. قال احد زعمائهم الاستاذ هولتسمان (Holtzmann:*Hand Comment*., IV,227):

«لا يمكن أن تُفهم هذه الآية في يوحنا عن سلطة مشتركة بين بطرس وبقية الرسل لانَّ هذا الكلام كلهُ شخصي فالمسيح يُعيد الى بطرس ملء السلطة التي خوَّلهُ ايَّاها في انجيل متى (١٦: ١٨–١٩) حيث جعلهُ صخرة البيعة». ثم يستشهد باقوال البروتستانت فضلًا عن الكاثوليك الذين ارتأوا هذا الرأي كهنستنبرغ Hengstenberg وفايس (Weiss). ويردف الكاتب قوله هذا بما تعريبهُ: «في آية يوحنا يظهر جليًّا بان المسيح يقلّد بطرس ليس فقط شرف الرسالة لكن ايضاً الرعية العامَّة على كل خراف المسيح»

وان قال قائل قد خصَّ المسيح بطرس بسؤاله عن محبته ثلاثاً ليمكّنهُ فقط من الوفاء عن نكرانه المثلَّث في وقت الآلام وليس المقصود من ذلك تقليد سلطة ما

نردّ على هذا الاعتراض من وجوهٍ متعدّدة: (اولًا) انَّ بطرس كان نال الغفران عن خطيئته حالًا بعد سقوطه لمَّا نظر اليه الرب في بيت قيافا فخرج من الدار وبكى بكاءً مرًّا. ثم ارسل السيد المسيح النساء الصالحات ليبشّرنَ الرسل بقيامته ولاسيما

بطرس لا بل ظهر له خصوصاً بعد قيامته كما يصرّح به لوقا (٢٤: ٣٤). ولما ظهر الرب في العلّية لجميع الرسل كان شمّلهم سلامهُ واعطاهم الروح القدس وكل ذلك يدلُّ على انَّ بطرس كان عاد الى نعمة ربه وصُفح نكرانهُ. (ثانياً) لو كان المسيح لم يقصد من سؤاله الى رسوله سوى الساعة عن انه لكان اكتفى بان يسأله فقط عن محبَّته له دون ان يطلب منهُ أيجبهُ اكثر من بقيَّة الرسل ثم كان قابل جواب بطرس بالسكوت. والحال نرى المسيح يردف كل جواب من لم بطرس بمجازاة واضحة وتحويل نعمة سنيَّة وهي رعية الخراف ورعية النعاج التي لم نجد لها شيئاً في كلامه الى بقية الرسل

وقد يعترض البعض على الحجَّة التي يستندُها الكاثوليك من قول المسيح لبطرس «إرعَ خرافي» بزعمهم ان رعاية الخراف انَّما تدلُّ هنا فقط على الارشاد واعطاء المشورة والتحذير كما يفعل الاخ باخيه والصديق بصديقه وانَّ اللفظة اليونانية ποιμαίνειν التي في آية يوحنا لا يُقصَد بها غير المشورة والارشاد والتهذيب امَّا السلطة الممنوحة لبطرس فكالسلطة المعطاة للرسل لمَّا قال لهم الرب في متى (١٨: ١٨): «مهما حللتم على الارض يكون محلولاً في السماوات الخ» وكقوله لهم بعد قيامته (يوحنا ٢٠: ٢١-٢٣): «كما ارسلني الآب انا ارسلكم ... اقبلوا الروح القدس. الذين تغفرون لهم خطاياهم تكون مغفورة لهم ومن امسكتم خطاياهم تُمسك لهم». وخلاصة القول ليس لبطرس شيء يميّزهُ عن اخوته غير كونه الاوَّل بالشرف ليس الَّا

نجيب على هذا المشكل (اوَّلاً) ان بطرس من حيث كان احد رسل المسيح قد نال كل ما نالوهُ من النعم اجمالاً. وليس العكس بالعكس فانهُ اصاب من الامتيازات ما لم يصبهُ احد منهم. ويظهر ذلك من مواعيد المسيح الخصوصية له في متى (١٦: ١٨-١٩) حيث أكّد له انه يجعلهُ صخرةً يبني عليها بيعتهُ وانهُ يعطيه مفاتيح ملكوت السماوات وهذا لم يَعِد به غيرهُ من التلاميذ وان شركهم بنعمة حلّ الخطايا او ربطها. نجيب (ثانياً) ان هذه المواعيد ليست امتيازات شرفية فقط بل تنبي بمنح سلطة حقيقيَّة في التعليم والتدبير كسلطة الاب على ابنائه والرئيس على مرؤوسيه. وهو امرٌ يتضح لكل معتبر لاقوال السيد المسيح واعماله فتمييزهُ المتواتر لبطرس بين بقيَّة تلاميذه لا يمكن تعليلهُ الَّا بالسلطة التي اعطاها لهذا الرسول. وقد عرف ذلك الرسل

اخوتهُ فتراهم بعد صعود الرب لا يقدمون على عمل ٍ الّا تحت رئاسته فهو المتقدّم في علّية صهيون وهو المتولي لانتخاب خلف ليوداس وهو الدافع عن حرمة التلاميذ امام اليهود وهو الواقف بازاء رؤساء الكهنة في مجمعهم وهو المدبّر لتقسيم الحسنات بين المؤمنين وهو المعاقب للمرائين اصحاب الكذب والخداع كحنانيا وسفيرة وهو الذي يحرم سيمون الساحر على يده تجري المعجزات في الهيكل وخارجًا عنهُ حتى انَّ ظلَّهُ يشفي المرضى هو الذي يبشر الامم قبل غيره ويتفقّد شؤون المؤمنين ويمنحهم الروح القدس في السامرة وغيرها هو المتصدّر في مجمع اورشليم . فيا لله ايستطيع ان يقول احد انَّ كلَّ هذه الاعمال لا تدلُّ على سلطة حقيقيَّة او يقول انَّ بطرس ادَّعى بهذه السلطة متعدّيًا في ذلك حقوقهُ طمعاً في الرئاسة دون ان يحتجَّ عليهِ احد من التلاميذ ويوقفهُ عند طوره . نجيب (ثالثًا) انهُ لا يصحّ قول الزاعمين بانَّ لفظة الرعاية في آية يوحنا « ارعَ خرافي » لا تدلُّ على السلطة فانَّ اللفظة اليونانية ποιμαίνειν في الاسفار المقدسة تقابل اللفظة العبرانية רעה وهذه الكلمة الموافقة للعربية « رعى » تدلُّ في الكتاب المقدَّس على ملء السلطة وكمال الامر ولو شئنا لأتينا بالشواهد العديدة المثبتة لقولنا . مثالهُ قول اسباط اسرائيل لداود بعد موت شاول (٢ ملوك ٥ : ٢) : « اذ كان شاول علينا ملكًا امس فما قبل كنت انت تُخرج وتدخل اسرائيل وقد قال لك الرب انت ترعى (תרעה ποιμανεῖς) شعبي اسرائيل » فالرعاية والملك هنا كما ترى شيء واحد . ومثلهُ في اشعيا (٤٤ : ٢٨) قول الرب لكورش ملك فارس : « انا القائل لكورش انت راعيَّ (רעי) انت متمم كل ما اشاء » فبديهيٌ انَّ كورش كان متوليًا سلطة حقيقيَّة ولم يُقمهُ الله فقط لرتبة شرفيَّة فالمقصود اذن من قوله انت راعيَّ اي انت المقلَّد السلطة باسمي . والآيات كهذه عديدة (كسفر العدد ٢٧ : ١٦ و٢ ملوك ٧ : ٧ و٢٤ : ١٧ الخ) لا بل نجد في الاسفار الالهيَّة لفظة الرعاية مكرَّرة للدلالة على سلطانهِ تعالى المطلق في المخلوقات . كقول الملك داود في الزبور (٢٢ : ١-٤) يصف تدبير الله وعنايتهُ : « الربُّ راعيَّ فلا يعوزني شيء . في مراعٍ خصبة يقيلني ومياه الراحة يوردني يردُّ نفسي ويهديني الى سُبُل البرّ الخ » وكقوله ايضاً (٧٨ : ٥٢) : « سيَّر الرب شعبهُ كالغنم وساقهم مثل القطيع في البريَّة وهداهم في طمأنينة فلم يرتاعوا . . . وادخلهم تخوم قدسهِ . . . وطرد من وجوههم الامم » . فمن لا يرى في هذه الآيات الإمرة والسياسة

والقيادة والتدبير وكلُّ ذلك قد رمز اليهِ بالرعية فكيف يقال انَّ المسيح لم يمنح بطرس غير شرف عرضيّ بقوله لهُ « ارعَ خرافي »

ولو طلب منَّا المعترض زيادة برهان لبيَّنا لهُ الامر من وجه آخر اعني رتبة المسيح نفسهِ التي اتَّفق العهدان القديم والحديث على وصفها بصورة الرعاية للأغنام. اما العهد القديم فقول حزقيال في الفصل ٣٤ وكلُّهُ من درر الكلام في المقابلة بين رعاة اسرائيل المنافقين والراعي المرسل لخلاص شعبهِ الى ان يقول وهو درَّة من قول:

« هكذا قال السيد الرب هاءنذا انشد غنمي وافتقدها انا كما يفتقد الراعي قطيعهُ يوم يكون في وسط غنمهِ المنتشرة كذلك افتقد انا غنمي وأُنقذُها من جميع المواضع التي شُتِّتت فيها يوم الغمام والضباب وأُخرجها من بين الشعوب واجمعها من الاراضي وآتي بها الى ارضها وارعاها على جبال اسرائيل وفي الاودية وفي جميع مساكن الارض. في مرعًى صالح ارعاها وفي جبال اسرائيل العالية تكون حظيرتها. هناك تربض في حظيرةٍ صالحة وترعى في مرعى دسم على جبال اسرائيل. انا ارعى غنمي واربضها يقول السيد الرب فأَطلب المفقودة واردُّ الشاردة واجبرُ المكسورة وأُقوّي الضعيفة واحفظُ السمينة والقويَّة وارعاها بعدلٍ »

وليس اقلّ منهُ وضوحاً ولا ادنى شأْناً في العهد الجديد كلام السيد المسيح عن نفسهِ حيث يقول (يو ١٠ : ١١—١٧) : « انا الراعي الصالح. الراعي الصالح يبذل نفسهُ عن الخراف... انا اعرف خاصَّتي وخاصَّتي تعرفني كما انَّ الآب يعرفني وانا اعرف الآب وابذل نفسي عن الخراف ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة فينبغي ان آتي بها ايضاً وستسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد »

فهذه الرعاية سلطة حقيقيَّة تامَّة نالها السيد المسيح من ابيهِ تشمل الامم والشعوب كلها فيرعاها بالرحمة والحنوّ إنْ انقادت الى صوتهِ ويرعاها بقضيب من حديد (مزمور ٢) ان ابت الخضوع. ولمَّا كان هذا الراعي لا يبقى على الارض منظوراً وكانت رعيَّتهُ من البشر المنظورين اقتضى الأمر ان يعهد بتدبير رعيَّتهِ الى من ينوب عنهُ فبقولهِ لبطرس « ارعَ خرافي » اقامهُ نائبهُ في رعاية هذه الاغنام الناطقة وجعل في يدهِ قيادتها ليرعاها في المراعي الخصبة ويبعدها عن المنتجعات الوخيمة ويردّ عنها

غارات الذئاب الكاسرة الى غير ذلك مما لا يقوم بغير سلطة تامة وتدبير تام وتعليم صادق معصوم من الضلال

وليست الرعاية كنايةً عن السلطة في الاسفار المقدسة وحدها او عند بني اسرائيل فقط فان آداب الامم كلّها قد ألفت تشبيه السلطة والامر والرئاسة برعية القطعان فانّ اليونان وهم اعلم من غيرهم بمعاني الكلام قد كرّروا ذلك في قصائدهم ألا ترى اوميروس الشاعر في كتاب الالياذة (ك ١ بيت ٢٦٣) يدعو ملوك اليونان المجتمعين للحرب « رُعاة الامم » (ποιμένες λαῶν) ومثل ذلك في شعر سوفوقليس واوريبيدس كثير. وقد شاع هذا الاصطلاح قبل اليونان عند الاشوريين. فقد جاء مثلاً في صفيحة وُصفت فيها اعمال الملك سرغون الاوّل عن لسان صاحب الاثر انهُ « حبيب الآلهة والراعي المختار الالهين اشور ومردوخ » ومثل ذلك في صفيحة تجلت فلاسر الاوّل: « انهُ هو الذي دعاهُ اشور الاله الاعظم ليرعى بلادهُ بكل استقامة » فكل هذه الشواهد لا تبقي ريباً في معنى قول المسيح لبطرس « ارعَ خرافي » اعني انهُ هو الراعي الكبير الذي اقامهُ الآب وارسلهُ الى العالم ليرعى الامم قد اتخذ من يمثلهُ في هذه الوظيفة في اعين البشر بينما هو يحتجب عن العيان ويقوم بهذه الرعاية في السماء بنوع غير منظور ويرشد بالهامهِ ونعمته الراعي المنظور الذي ينوب عنهُ في الارض

ولا يقولنَّ قائل « أنّا نسلّم بان بطرس قد أعطي بقوّة هذه الآية ملءَ السلطان على الكنيسة ولكن لا تثبت هذه الآية انّ ذلك الامتياز يتناول الاحبار الرومانيين » فانّ هذا الرأي باطل لا اسّ لهُ. وذلك لانَّ التطبيع الذي انشأهُ المسيح ليس هو قطيعاً زائلاً او جماعة زمنيّة بل هو جسمٌ ادبيٌّ يبقى الى منتهى الاجيال كما صرّح بهِ السيد المسيح لتلاميذهِ مراراً متوالية. فلا بُدَّ لهُ اذن من راعٍ في كل آونة وجودهِ الى آخر ساعة من كيانهِ. وبطرس من حيث هو شخص خاصّ كاحد افراد البشر لا يعيش الى الابد فلا بُدَّ اذن من القول بانَّ بطرس لم يُمنح نعمة الرعاية ليباشرها بنفسهِ فقط بل ماكأس سلسلة ترتبط حلقاتها دون انفصام كما ينال احد الملوك سلطاناً على أمة فيبسط عليها ملكهُ هو اولاً ثم خلفاؤهُ من بعدهِ سواء كانوا اولادهُ او ولاة عهدهِ او ورثة ملكهِ على طريقة شرعيّة جرى عليها الاتفاق

وكذلك يؤخذ من كلام المسيح الى بطرس انهُ اساس بناء الكنيسة الحيّ يجمع

كلمتها ويبعد عنها كل ما يضعضع اركانها او يفرّق بنيانها ابدًا وكذلك لا يتمّ الّا بدوام ذلك الاساس الادبيّ الحيّ . فيترتّب على ذلك ان الاساس ليس هو منوطاً بشخص معروف بل بمقام ذلك الشخص وبرتبته ليبقى البنيان على مدى الدوران طالما تبقى الرتبة ويتولّى امرها انسان

٣ الآثار البيعيّة القديمة

افادنا القسم الاوّل حقيقة الرئاسة البطرسية من فحوى كلام الرب الى رسوله ومن امره له بان يرعى خرافه . بقي علينا أن نبحث عن رأي الكنيسة في معنى هذه الآية أيتّفق الآباء في تفسيرها كما فسّرناها وهل تنطبق على ذلك المجامع المقدّسة وطقوس الكنيسة على اختلافها . فان كان الامر كما روينا وثبت ان التقليد المتواصل يجد في قوله تعالى « ارعَ خرافي » سندًا لسلطة بطرس وخلفائه على الكنيسة صحصح الحقّ ولم يبق في الامر ريب

انّ آباء الكنيسة سواء كان في ميامرهم او في تفاسيرهم على انجيل يوحنّا ذكروا الآية التي نحن في صددها وليس بينهم واحد يخالف الشرح الذي قدّمناه بل كلهم الغربيين والشرقيين يذهبون الى انّ المسيح بموجب هذه الكلمات قلّد بطرس السلطة التامّة على كنيسته في التعليم والتدبير ولا حاجة بان نتّسع في ذكر اقوال آباء الكنيسة اللاتينيّة الذين صرّحوا بالامر تصريحًا ينفي كل شكّ . قال القديس اوغسطينوس في ردّه على فوستوس (Migne: PP. LL., XLII, 445) : « قد أُقيم بطرس راعياً على الكنيسة كما أُقيم موسى رئيساً على جماعة اليهود » . ومن المعلوم انّ رئاسة موسى على شعب الله لم تكن رئاسة شرف فقط بل سلطة قضاء وتدبير وتعليم فلا بُدّ اذن من التسليم بانّ رئاسة بطرس كانت مثلها .

ومن ابدع ما قيل في ذلك ما كتبهُ القديس برنردس الى تلميذهِ البابا اوجانيوس الثاني وقد جمع في قوله كثيرًا من اقوال الاباء قبلهُ : « انت من انت ؟ انت الكاهن العظيم والحبر الاعظم انت إمام الاساقفة ووريث الرسل . انت الراعي الأوّل كهابيل . انت ربّان السفينة كنوح وابو الاباء كابراهيم . رتبتُك كرتبة ملكيصادق ومقامك كمقام هارون . لك رئاسة موسى الكليم وقضاء صموئيل وسلطان بطرس ومسحة

المسيح. انت الذي قُلدت مفاتيح السماء ووُكلتْ اليك الاقنام الناطقة. نعم لأنَّ غيرك قد أُقيموا ايضاً لحجابة الملكوت ولرعاية القطيع الكنسي لكنْ درجتك ارفع واوسع من درجتهم. قد عُهد اليهم كل واحد بقطيع خاصّ امّا انت فقد عُهد اليك وحدك بأن ترعى الجميع ليس الغنم فقط بل الرعاة ايضاً لأنك راعي الرعاة ولك وحدك الرب قال دون غيرك من الاساقفة والرسل قولًا شاملًا مطلقًا: «ان احببتني يا بطرس فارعَ خرافي» فلم يقل ارعَ خراف بلدٍ ما او امّة ما او مملكة ما بل خرافي دون تقسيم ولا افراز ولا حصر» فنعم القول وحبّذا القائل

وليس لآباء الكنيسة الشرقيّة رأي مخالف للرأي السابق فاسمع قول يوحنا الذهبي الفم في ميمره الثامن والثمانين على يوحنا (Migne. PP. GG, LIX, 478-9) فهنالك كلام مستفيض لهذا الخطيب المفوَّه عن رئاسة بطرس نقلنا خلاصتهُ في المشرق (٥: ١٣٤) وممّا قال ما تعريبهُ: «ما للرب قال لبطرس «ارعَ خرافي» وضرب الصفح عن بقيّة الرسل؟ أليس ذلك الّا لانّ بطرس كان رسول المسيح المصطفى ولسان التلامذة ورأس الفئة الرسوليّة... وانّما يقول لهُ: «ان كنت تحبني كن رئيساً على اخوتك وبيّن صدق محبّتك نحوي بحسن تدبيرهم وابذل من غني نفساً قلتَ لي انك تجعلها فداي». فمن لا يرى انّ الذهبيّ الفم فهم مثلنا انّ رعاية الخراف هي رئاسة حقيقيّة وسلطة ثابتة حتى على الرسل والتلاميذ

وليس هذا الميمر الوحيد الذي اكّد فيهِ فمُ الذهب رعاية بطرس وخلفائهِ على الكنيسة جمعاء. فانهُ في ميمرهِ الحادي والخمسين على متى في شرح مثل العشرة الآلاف وزنة وفي ميمرهِ السابع والخمسين عليهِ في بيان قول المسيح الى بطرس «انت الصخرة» يعود الى ذكر ما نالهُ هامة الرسل من السلطان لرعية قطيع كنيستهِ

ومثل الفم القسطنطيني كذلك الفم القيصري باسيليوس (Migne, PP. GG. XXXI, 1408) يؤكد سلطة بطرس الرعائيّة على كنيسة المسيح. ففي دستور الرهبانية الفصل الثاني العدد الرابع يذكر ما يجب على الرهبان من الطاعة لرئيسهم «الذي يمثل لهم شخص المسيح ذاك المتوسّط بين الله والبشر ليخلص الذين يخضعون لوصاياه» ثم يردف قولهُ بما تعريبهُ: «وقد تعلّمنا هذا من السيد المسيح نفسه الذي اقام من بعدهِ بطرس راعياً لكنيسته حيث قال لهُ: «يا بطرس اتحبني اكثر من هؤلاء؟»

ارعَ خرافي ». فاوضح باسيليوس بهذه الشهادة انَّ بطرس تولّى كنيسة المسيح من بعده بقوّة هذه الآية ولم يستثنِ من رئاسته على الكنيسة احداً

ومثلهما صراحةً وبياناً معاصرهما كيرلس الاورشليمي في كتاب المعتقدات (Migne, *ib.*, XXX, 407, 855, 998) الذي يشير غير مرّة الى رئاسة بطرس العموميّة لانَّ الرب امره برعية اغنامه الناطقة (τὰ νοητὰ πρόβατα) ويذكر توبته بعد خطيئته فيقول انهُ لم يفقد شيئاً من امتيازاتهِ بل صار هامة الرسل العليا ورئيسهم الاوّل (ὁ κορυφαιότατος καὶ πρωτοστάτης τῶν ἀποστόλων) وحاجب الملكوت السماوي (τῆς βασιλείας τῶν οὐρανῶν κλειδοῦχος)

ومن معاصري هؤلاء الآباء في القرن الرابع ابيفانيوس اسقف قبرس الذي في كتاب الهرطقات (الهرطقة ٥٩) يُنهض همّة الخطأة ويحضّهم على الانابة الله ويعرض عليهم مثال هامة الرسل الذي استحقَّ بعد توبته « ان يكون اساساً للكنيسة من كل وجه » (ἐφ' ᾗ ᾠκοδόμηται ἡ Ἐκκλησία κατὰ πάντα τρόπον) ثم ذكر كلام الرب الى بطرس في حياته ثم كلامهُ لهُ بعد قيامته بياناً لهذه الرئاسة الكليّة (Migne, PP. GG., XLI, 1030)

وجاء في اعمال القديس استيريوس الاماصي (Migne, XL, 282) في خطبته عن الرسولين بطرس وبولس: « انَّ المخلص اذ اراد بتجسّده ان يقدّس الجنس البشري اوصى بكنيسته المنبثّة في كل جهات المعمور لبطرس كوديعة خاصّة وكوراثة اذ سألهُ ثلاثاً أتحبّني . ولمَّا رأى المسيح انَّ تلميذهُ اجاب بنشاط على سؤاله الثلث سلّم اليه ايضاً ثلاثاً تدبير العالم وجعلهُ راعياً واحداً على رعيّة واحدة (ὡς μίαν ἀγέλην εἰς ποιμήν) لمَّا اسمعهُ هذه الكلمات « ارعَ خرافي » . وكاد يرتفع الى مقامه الرفيع تلميذه الامين اذ جعلهُ اباً وراعياً ومعلماً للذين كانوا مقبلين الى الايمان » . وهذا الكلام اوضح من ان يحتاج الى تفسيرٍ وقد ردّدهُ القديس في هذه الخطبة على وجوه متنوعة تُزيل كلّ الشبهات في بيان مقصوده

وللثاودوريطس اسقف قورش خطبة في المحبة الالهيّة والمحبة البشريّة كلُّها محاسن بنى قسماً منها على قول بطرس مجيباً على سؤال ربه « اتحبّني اكثر من هؤلاء » وعلى قولهِ تعالى لهُ : « ارعَ خرافي » (Migne, LXXXII, 1507) لا يمكننا ان ننقل

منهـا غير فقرات قليلة. قال من لسان الرب : « ان كنت تُحبّني يا بطرس فاعلم اني لست في حاجة الى شيء او الى احد ولكن أقبلُ منـك كأنهُ لنفسي كل ما تظهره من العناية في رعاية اغنامي. فكلُّ ما وجدتهُ فيَّ نحوك من التدبير والحبّ فاعلن به نحو رفقتك فارعهُم كما لرعاك واملك عليهم كما املك عليك. بهذا تفي بشكرك لي... فكن لهم سنداً وشدّد ازرهم وقوّم ميلهم وانهض ضعفهم... والحق يقال انَّ بطرس قد اضحى ركناً للايمان غير متزعزع وكان دليلاً اميناً للعالم كله فنجّاه من الضلال بقوّة كلمة الرب القائل له: « ارعَ خرافي »

ولولا خوفنا من ملل القرّاء لأتينا بشهادات عديدة غير السابقة كثاوفيلكتس في شرحه على يوحنا (Migne, CXXIV, 310) وافتيميوس من كتبة القرن التاسع في تفسير هذا الفصل عينه (Migne, CXXIX, 1495). وهذه شواهد لبعض كتبة الكنيسة السريانية. قال ثاودورس الضيصي (ed. Chabot, p. 407) في آية يوحنا المذكورة انَّ الرب بقوله لبطرس اوّلاً « ارعَ حملاني » (ܐܡܪܝ) سلّمهُ كلَّ المؤمنين به ليسند ايانهم ويثبت ضعفهم لانَّ ايانهم ليس بثابت. ثم قال له بعد اعترافه الثاني بحبّه « ارعَ خرافي » (ܥܪܒܝ) فاراد انهُ يسلمهُ ايضاً الكاملين كالرسل والرعاة والكهنة ليخضعوا له. ثم بعد سؤاله الثالث ايجبّه قال له: « ارعَ نعاجي » (ܢܩܘܬܝ) حتى يدلَّ بذلك على انه يسلمه كل الخلائق الناطقة حتى اضعفها كالنساء الضعيفات من بتولات طاهرات ومقيّدات بالزواج فانَّ الرب لم يستثنِ احداً من سلطة بطرس لا من الخاصّة ولا العامّة بل جعله رئيساً على الجميع مطلقاً »

وقال ايليا اسقف الانبار امام النساطرة في زمانه في القرن العاشر : « قد صار بطرس اساس الايمان وهامة الرسل اخوته وبنّاء الكنيسة المقدّسة وقد فاز بهذه الامور الثلثة اذ نال مقاليد العلويّات والسفليّات اعني السماء والارض وملكهما دلالةً على سلطته الثلثة وقد أُعطي ايضاً رعاية القطيع الناطق في كل اقسامه النعاج والخراف والكباش وفقاً لامر الرب »

ومثلهُ ابو الفرج البغدادي المعروف بابن الطيّب النسطوري: « يريد المسيح بالحملان والكباش والنعاج جميع اصناف المؤمنين من الرجال والنساء. فقال لشمعون ان كنت تحبّني المحبّة التامّة الكاملة فأفِدْ مواهبي وعطاياي وعلمي وذخائر سُنّتي

للمؤمنين بي. وهذه وصيّتي اليك بخلاف كل وصيّة ان تفيد الناس كافّة علم الحقّ وسنن البشارة الانجيليّة الموصلة لهم الى الملكوت السماوي» . . . ثم قال ايضاً: «ارعَ لي» هو بمعنى كن نائباً عني ويقول «كباشي وخرافي ونعاجي» يعني كافّة المؤمنين والمؤمنات الرأس منهم والوسط والدون»

فنقف عند هذا الحدّ لئلّا نورث قرّاءنا الملل بوفرة الشهادات التي ترمي كلّها الى غرض واحد ومعنى واحد اعني الرئاسة التامّة على الكنيسة في كل رتبها وطبقاتها

على أنّا لا نستطيع ان نضرب صفحاً عن شواهد أخرى تؤيد هذه القضيّة وقد اعتاد اللاهوتيون ان يتّخذوها في بيان المعتقدات كحجّة قاطعة نريد الصلوات الطقسيّة فانّ هذه الصلوات تتضمّن لباب تعاليم الرسل واقوال الآباء. وهي في الموضوع الذي يشغلنا عديدة جداً نكتفي بالقليل منها خوفاً من الاسهاب

فما جاء في الليتورجيّة النسطوريّة وهي كما لا يخفى من اقدم الليتورجيّات المعروفة في عهدنا اذ يرقيها العلماء الاثبات الى قرون النصرانيّة الاولى قولهم في صلوات عيد القديسين الرسولين بطرس وبولس :

«طوباك يا سمعان بن يونا هامة الرسل وبكرهم فانّ سيدك قد اصطفاك واعطاك مقاليد المنازل العلويّة لتفتح بابها للمرتدّين. قال لك الرب ثلاثاً: ارعَ خرافي ارعَ نعاجي ارعَ كباشي التي افتديتُها بدمي فاني جاعلك قيّماً على ملكوت السماوات. فتولَّ الامور ودبّرها بحكمة كقهرمان عاقل ووزّع بفطنة كنوزي الروحيّة . . . ارعَ واحفظ الخراف المفديّة بالصليب بتيقّظ واجتهاد ومحبّة وكمال وصدق صُنها من الذئاب الخاطفة ومن ابناء الضلال بالقوّة التي أُعطيتها من الروح القدس»

وورد في الليتورجيّة السكوبيّة عدّة نصوص تبيّن صريحاً رئاسة بطرس على الكنيسة كلها حتى الرسل. وقد جمع هذه الشواهد الراهب البرنبي الشهير الاب تنديني (Tondini) فننقل عنهُ هذه الشهادة وحدها (ص ٢٣) الواردة في فرض عيد الرسولين بطرس وبولس: «أنك يا بطرس قد ائتُمنت رعاية قطيع المسيح لكونك الافضل والاعظم (ὡς πανάριστος) . . . انت راعي جميع الرسل بالحقّ المعطى لك من الله»

والكنيسة اليونانيّة في هذا المعتقد لا تُخالف غيرها من الكنائس بل تعدّدت في

طقوسها الاوصاف المبيّنة برئاسة هامة الرسل حتى لو جُمعت لتألّف منها كتاب واسع. امّا نعتها له بالراعي للكنيسة ولكلّ المؤمنين دون اختلاف بين رئيس ومرؤوس بين رسول وموعوظ بين راعٍ وقطيع فاكثر من ان يُحصى. (راجع مثلاً مجموع تسابيح الكنيسة اليونانية للكردينال بترا (J. B. Pitra: *Hymnographie grecque*)

ولدينا شاهد آخر على معتقد الكنيسة واستنادها على كلمة الرب لنسبة الرئاسة العظمى لبطرس في الآثار القديمة والعاديّات الدمراثيّة التي تتراوح بين القرن الثاني والسادس للمسيح. لكنّ المشرق قد سبق الى وصف تلك الآثار في مقالة جميلة للاب جلابرت نُشرت في اعداد السنة السادسة (ص ٥٧٦–٥٨٥) فلتُراجع

فبكل صواب اذن قد حكمت الكنيسة في مجامعها مرارًا بانّ بطرس بقوّة الآية المرويّة في يوحنّا قد قُلد مالَ السلطان على الكنيسة وجميع ابنائها وكذلك خلفاء بطرس من بعده على كرسيّه الروماني. قال المجمع الفلورنتيني بعد اتحاد الكنيستين اللاتينيّة واليونانيّة: «نحكم بانّ للكرسي الرسوليّ المقدّس وللحبر الرومانيّ التقدّم على جميع الاساقفة في معمور الارض وهو خليفة الطوباويّ بطرس هامة الرسل ونائب المسيح الحقيقي ورأس الكنيسة كلها وابو المسيحيين اجمعين ومعلمهم وبان السيد المسيح اعطاهُ في شخص الطوباوي بطرس سلطانًا مطلقًا عامًا لرعاية الكنيسة وتدبيرها وسياستها جميعها كما هو مذكور في اعمال المجامع وفي القوانين المقدّسة

فلا يبقى لنا في ختام فصلنا هذا الّا ان نشكر السيّد المسيح ربّ الارباب وملك الملوك الذي لم يترك كنيسته كجسم بلا راس وكدار بلا ربّ بيت وسفينة بلا ربّان ودولة بلا ملك. فيا لله. اذا كان حلّ بالكنيسة لو أهملت الى تدبير رؤوس متعدّدين ورُعاة مستقلّين لا يضمّ كلمتهم رأس واحد ولا يجمع شتاتهم راعٍ فرد. نعم انّنا نعلم انّ السيّد المسيح هو رأس الكنيسة الاعلى واساسها الاول قد وعد بانّه يحميها ويدبّرها بعنايته الى منتهى الدهور الّا انهُ انشأ جماعة بشريّة منظورة تتصرّف في اعمالها ومشروعاتها وادارة امورها بين البشر المنظورين وتناهضها القوّات المنظورة لتصدّها عن غايتها اي خلاص النفوس فاقتضى الامر أن يكون لها ما عدا الراعي غير المنظور راعٍ منظور قد عرفناهُ من الانجيل الطاهر واتّفقت الآباء والكنائس الحافلة والآثار القديمة في الدلالة عليه اعني بطرس الرسول. وليس بطرس في هذا الامتياز

شخصاً منفرداً بل ممثلاً لمن يجلسون بعده على كرسيهِ الروماني اذ الرعيَّة محتاجة الى راعٍ يدبّرها بعد مماتهِ وليس راعٍ آخر غير خلفائهِ من بعدهِ . واسم هذا الراعي الجليل في يومنا هذا بيوس العاشر وكل من وقف على اعمالهِ منذ جلوسهِ على كرسي الخلافة البطرسيَّة يقرُّ علناً بانهُ افضل خلف لأفضل سلف لا يزال بهِ بطرس حيًّا في الكنيسة . متَّعنا الله برعايتهِ سنين طويلة وقادنا على يدهِ الى المراعي الخصبة ثم الى جنان الخلد امين اللهمَّ امين

تحيَّة من الارز

في اليوبيل البابوي الكهنوتي الخمسيني

للاخ ب . ب . الراهب المارونيّ اللبناني

يا ارز مالك فوق السحبِ مرتفعا   كأنَّ رأسكَ في الجوزاء قد طمعا
بسطت اغصانك الخضراء عن جزلٍ   والشمس من نورها حاكت لها الخلعا
والريحُ غنَّت على ميدانها طرباً   وصوت تنغيمها في القرْب قد سُمعا
يفوح من أرَج الاغصان اذ رقصت   نشرُ ذكيِّ الشذا من قبلُ ما سطعا
مالك فوق ذرى لبنان في فرحٍ   مهدي بمثلك لا يستحسن البدعا ؟
—أهدي السلام الى رأس الكنيسة من   ضياء يوبيله في الجو قد لمعا
تزهو احتفاءً بهِ الاكوان قاطبةً   ويلهج الغرب في ذكراهُ مندفعا
هل يبقى لبناننا في الصمت معتزلاً   ومن مشارقهِ نور الهدى طلعا ؟
— يأبى بنو شرقنا الَّا مشاركة م   الغرب بعيد أبٍ في حبهِ طُبعا
حبرٌ عظيمٌ على كرسيِّ بطرس قد   بدا ومن حولهِ الاحبارَ قد جمعا
تعنو الرؤوس ازاء العرش خاضعةً   لنائب الله مَن كلٌّ لهُ خضعا
اقامهُ الله رأساً في كنيستهِ   يرعى الرعايا ويغذي قومهُ الورعا
يدعو الخراف بصوتٍ طاب مسمعهُ   فصوتهُ باتّباع الحق قد صدعا
إنَّا مطيعون هذا الرأس عن قدم   نعاهد النفسَ ان نبقى لهُ تبعا

تعوَّد الخيرَ والاحسانَ من صغرٍ ... مع اللبان حليبَ العزّ قد رضعا
في النائبات يُرى بالحزم معتصماً ... وفي الرزايا بدرع الصبر مدرعا
شعارهُ قد بدت للناظرين بهِ ... سفينة الله في بحرٍ قد ارتفعا
ها نحن في وسط يمٍّ ثار ثائرهُ ... فرق السفينة والرُّبان ما هجعا
طغت على جنبها الامواج تقذفها ... وقد هلعنا سوى الرُّبان ما هلعا
بل ظلّ كالصخرة الصلداء منتصباً ... يصارع الموج لا يهتابهُ فزعا
من اسكت البحر في تيّارهِ قدماً ... لا شك يُسكتهُ ان عجَّ مندفعا
يا بحر قَصْ وانكسر يا موجُ منخفضاً ... وطأطئِ الرأس كن للحبر متضعا
لامر بيوس من قال المسيح له : ... « انت الصفا حصنها قد عزّ مرتفعا
« جيش الجحيم اليها لم يجد سبلاً ... بل يرجع القهقرى ان حاول الطمعا »
قالوا قضى الاسد الضرغام وانكسرت ... بهِ الكنيسة هيا نزرع البدعا
فاين لاون اين اليوم سطوتهُ ... ويلٌ لاشباله ان سيّدنا لمعا
بل ويلكم يا عداة الدين فارتدعوا ... من غيكم ان خير النصح ما ردعا
نصحتكم يا أُصيحابي ألا انتصحوا ... فغيركم طاش سهماً والتوى جزعا
أما قرأتمُ : « اني كائنٌ معكم ... طول المدى لا تخافوا فادفعوا الهلعا »
أتبتغون قتال الله ويلكمُ ... من قاتل الله خاب السعي واضرعا
رغبتمُ ان تدكّوا ركن بيعتهِ ... قد كان ما رمتمُ يا قوم ممتنعا
هلّا دريتم بان الله يحرسها ... وتحت اقدامها قد ذلّل الشيعا
وقام بيوس في الاكوان يرأسها ... يحمي حماها يرد الذئب والسبعا
سعدتِ يا رومة العظمى وسدت على ... كل الكنائس قومي فاخري البيعا
قومي ارفعي الرأس باليوبيل معجبةً ... فانَّ رأسكِ يبقى الدهر مرتفعا
وفاخري الكون يوم العيد وافتخري ... برأسِ دينٍ صحيحٍ ما شكا وجعا
فحسبكِ الفخر في الدنيا ببيوس اذ ... الفيتِ فيهِ مجال الفخر متسعا

رسالة

في الخوف من الموت وحقيقتهِ وحال النفس بعده

نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي

توطئة

بين المخطوطات العربيَّة التي دخلت منذ عهد قريب في خزانة كتب باريس العمومية (Bibl. Nationale, Mss. Arabes, n° 4946) مجموع نفيس صغير الحجم يبلغ عدد صحائفهِ ٨٧. وهو موسوم بالعدد ٤٩٤٦ والذي لا بدَّ لنا ذكرهُ في قائمة المخطوطات المطبوعة التي لا يتجاوز عدد موصوفاتها ٦٦٦٥. وليس لهذا الكتاب تاريخ معلوم وانما هو من القرن الخامس عشر كما يدلُّ عليهِ ورقهُ الصفيق وحبرهُ. وقد اتقن الناسخ خطَّهُ واحسن ضبطهُ. امَّا مضمونهُ فسبع مقالات قديمة في الحكمة والرياضيَّات وتحريك الاثقال منها مقالة بديعة في القرسطون اي الميزان لثابت بن قرَّة ننشرها قريبًا ان شاء الله. ومن افضل محتويات هذا المجموع رسالة فلسفيَّة فريدة في بابها نسخناها في رحلتنا الحديثة الى باريس اسمها « رسالة في الخوف من الموت وحقيقتهِ وحال النفس بعدهُ » قصد بها صاحبها بيان الاسباب التي تحمل الانسان على الخوف من الموت ثمَّ البحث عن الادوية التي يمكنهُ ان يداوي بها نفسهُ من هذا الداء. امَّا مؤلف الرسالة فلم يُعلم كما يظهر من فاتحة الرسالة وقد راجعنا مؤلَّفات مشاهير فلاسفة المسلمين كالشيخ الرئيس ابن سينا ويعقوب الكندي وابي نصر الفارابي وابي الريحان البيروني والامامَين الرازيين لعلَّنا نجد في تآليفهم ذكرًا لهذه الرسالة فخاب املنا لكنَّنا لا نشك بانَّها لاحد قدماء ارباب الحكمة ويكفي دليلًا على ذلك قدم الكتاب وحسن طريقة الكاتب في تنسيق براهينهِ واثبات حججهِ والظاهر انَّ المؤلف كان من اهل القرن الخامس لما يذكرهُ في رسالتهِ من الزمان بينهُ وبين عليّ بن ابي طالب اعني اربعمائة سنة. ونحن نقدّم هذا الاثر لقرَّائنا في اوَّل الشهر المخصَّص بذكر الموتى ليروا انَّ الخوف من الموت من الأدواء التي يستطيع الانسان ان يشفيها بحكمة العقل فما قولك بنعمة الدين القويم الذي يعلّم المسيحي بان هذه الحياة دار بلغة وسبيل للآخرة أُعطيها الانسان ليجاهد في سبيل البرّ ويكتسب رضوان خالقهِ بحسن سلوكهِ فيثيبهُ الله عن اعمالهِ الصالحة في العالم الباقي وان لم يفعل حقَّ لهُ الخوف من الديَّان العادل الذي يطالبهُ عن سيئاتهِ ولا يدع آثامهُ دون عقاب فان سار المرء بموجب هذه التعاليم وسلك طريق البرّ وحاد عن الاثم أَمِن خوف الموت وربَّما رغب فيهِ كالرسول (فل ١: ٢٣) الذي كان يودّ انحلال جسده ليحظى بالمسيح. ارشدنا الله الى حفظ وصاياه ونوال جزائهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين وصلواته على محمد وآله الطاهرين

لما كان اعظم ما يلحق الانسان من الخوف هو الخوف من الموت وكان هذا الخوف عامًا وهو مع عمومه اشد وابلغ من جميع المخاوف وجب ان اقول: انّ الخوف من الموت ليس يعرض الّا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة او لا يعلم الى اين تصير نفسه. او لأنّه يظنّ اذا انحلّ وبطل تركيبه فقد انحلّ ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور وانّ العالم سيبقى بعده كان هو موجودًا او ليس هو موجودًا كما يظنّه من جهل بقاء النفس وكيفيّة معادها. او لأنّه يظنّ انّ للموت ألمًا عظيمًا غير الامراض التي ربّما تقدّمته وادّت اليه وكان سبب حلوله. او لأنّه يعتقد عقوبة تحلّ به بعد الموت. او لأنّه متحيّر لا يدري الى ايّ شيء يقدم بعد الموت. او لأنّه يأسف على ما يخلّفه من المال والقنيات. وهذه كلها ظنون (75ʳ) باطلة لا حقيقة لها

أمّا مَن جهل الموت ولم يدرِ ما هو فانّا نبيّن له انّ الموت ليس بشيء اكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الاعضاء التي مجموعها يسمّى بدنًا كما يترك الصانع مثلًا استعمال آلاته. فانّ النفس جوهر غير جسمانيّ وليست عرضًا وانها غير فاسدة وهذا البيان يحتاج الى علوم تتقدّمه وذلك مبيّن مشروح في موضعه. فاذا فارق هذا الجوهر البدنَ بقي البقاء الذي يخصّه ونُقّي من كدر الطبيعة وسعد السعادة التامّة. ولا سبيل الى فنائه وعدمه فانّ الجوهر لا يفنى من حيث جوهره ولا تبطل ذاته وانّما تبطل الاعراض والخواصّ والنسب والاضافات التي بينه وبين الاجسام باضدادها. فأمّا الجوهر فلا ضدّ له وكلّ شيء يفسد فانّما يفسد من ضدّه وانت ان تأمّلت الجوهر الجسمانيّ الذي هو اخسّ من ذلك الجوهر الكريم واستقريت (واستقرأت) حاله وجدته غير فانٍ ولا يتلاشى من حيث هو جوهر وانّما يستحيل بعضه الى بعض (75ᵛ) فيبطل خواصّ شيء شيء منه واعراضه. فأمّا الجوهر نفسه فهو باقٍ ولا سبيل الى عدمه وبطلانه.

الجوهر الروحاني الذي لا يقبل استحالةً ولا تغيُّرًا في ذاته وانّما يقبل كمالاتهِ وتمام صورتهِ فكيف يُتوهَّم فيهِ العدم والتلاشي

وأمّا من يخاف الموت لأنّهُ لا يعلم الى اين تصير نفسهُ او لأنّهُ يظنّ انّ بدنهُ اذا انحلَّ وبطل تركيبهُ فقد انحلَّ ذاتهُ وبطلت نفسهُ وجهل بقاء النفس وكيفيَّة المعاد فليس يخاف الموت على الحقيقة وانّما يجهل ما ينبغي ان يعلمهُ فالجهلُ اذن هو المخوف اذ هو سبب الخوف. وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب فيهِ وتركوا لاجلهِ لذّات الجسم وراحات البدن واختاروا عليهِ النصَب والسهر ورأوا انّ الراحة الحقيقيَّة التي يُستراحُ بها من الجهل هي الراحة بالحقيقة وانّ التعب الحقيقي هو تعب الجهل لانهُ مرضٌ مُزمِن النفس والبرءُ منهُ خلاصٌ لها وراحة سرمديَّة ولذَّة ابديَّة. فلمّا تيقَّن الحكماء ذلك واستبصروا بهِ (76ᵃ) وهجموا على حقيقتهِ ووصلوا الى الرَوْح والراحة هانت عليهم امور الدنيا كلها واستحقروا جميع ما يستعظمهُ الجمهور من المال والثروة واللذّات الحسيَّة والمطالب التي تؤدي اليها اذ كانت قليلة الثبات والبقاء سريعة الزوال والفناء كثيرة الهموم اذا وُجدت عظيمة الغموم اذ فُقدت فاقتصروا فيها على المقدار الضروري في الحياة وتسلَّوا من فضول العيش التي فيها ما ذكرتُ من العيوب وما لم اذكرهُ ولأنها مع ذلك بلا نهاية. وذلك انّ الانسان اذا بلغ منها الى غاية تداعت الى غايةٍ اخرى من غير وقوف على حدّ ولا انتهاء الى أمد وهـذا هو الموت لا مخافة منهُ والحرصُ عليهِ هو الحرص على الزائل والشغل بهِ هو الشغل بالباطل. ولذلك جزم الحكماء بانّ الموت موتان موت إرادي وموت طبيعيّ وكذلك الحياة حياتان اراديَّة وطبيعيَّة وعنَوا بالموت الاراديّ اماتة الشهوات وتَرْك التعرُّض لها وعنَوا بالحياة الاراديَّة ما يسعى لها الانسان في الحياة الدنيا من المآكل والمشارب (76ᵇ) والشهوات وبالحياة الطبيعيَّة بقاء النفس السرمدي في الغبطة الابديَّة بما يستفيدهُ من العلوم ويبرأ بهِ من الجهل ولذلك وصّى افلاطون الحكيم طالب الحكمة بان قال له: مُتْ بالارادة تحيَ بالطبيعة

على انّ من خاف الموت الطبيعي من الانسان فقد خاف ما ينبغي ان يرجوهُ (١

١) في قول المؤلف هنا نظرٌ فانهُ (اوّلا) يحسل حدَّ الانسان «حيٌّ ناطقٌ مائتٌ» والفلاسفة يحدُّونهُ «حيٌّ ناطقٌ» امّا المائت فلا يدخل في جنسهِ وفصلهِ وان كان الموت من خواصهِ

وذلك انَّ هذا الموت هو تمام حدّ الانسان لانهُ حيّ ناطق مائت فالموت تمامهُ وكمالهُ وبهِ يصير الى أفقهِ الاعلى . ومن علم انَّ كل شيءٍ مركّب من حدّهِ وحدّهُ مركّب من جنسهِ وفصلهِ وانَّ جنس الانسان هو الحيّ وفصلهُ هو الناطق والمائت علم انهُ مستحيلٌ الى جنسهِ وفصلهِ لانَّ كل مركّب لا محالة يستحيل الى شيءٍ الشيءِ الذي منهُ تركّب فمَنْ أجهلُ مَن (ممَّن) يخاف تمام ذاتهِ ومَنْ اسوأُ حالاً ممَّن يظنُّ انَّ فناءهُ بحياتهِ ونقصانهُ بتمامهِ . وذلك انَّ الناقص اذا خاف ان يتمّ فقد حلَّ من نفسهِ على غاية الجهل فاذن يجب على العاقل ان يستوحش من النقصان ويأنس بالتمام ويطلب كلَّ ١٠(٢)77 يتمّمهُ ويكمّلهُ ويشرّفهُ ويُعلي منزلتهُ ويحلّ رباطهُ من الوجه الذي يأمن بهِ الوقوع في الأسر لا من الوجه الذي يشدّ وثاقهُ ويزيدهُ تركيباً وتعقيداً ويثق ان الجوهر الشريف الالهي اذا تخلّص من الجوهر الكثيف الجسماني خلاصَ نقاءٍ وصفوٍ لا خلاصَ مزاجٍ وكدرٍ فقد سَعِدَ وعاد الى ملكوتهِ وقرب من بارئهِ وفاز بجوار رب العالمين وخالطهُ بين الارواح الطيّبة من اشكالهِ واشباههِ ونجا من اضدادهِ واغيارهِ . ومن هاهنا تعلم انَّ من فارقت نفسهُ بدنهُ وهي مشتاقة اليهِ مشفقة عليهِ خائفة من فراقهِ فهي في غاية الشقاء والألم من ذاتها وجوهرها سالكة الى ابعد جهاتها من مستقرّها طالبة قرارها ولا قرار لها

أمّا ما يُظنّ انَّ للموت ألماً عظيماً غير ألم الامراض التي ربّما تقدّمتهُ وادّت اليهِ

الطبيعيّة . (ثانياً) ليس بصحيح انَّ بالموت تمام الانسان وكمالهُ لانَّ الانسان بخالف الارواح المجرّدة التي لم تُخلَق لترتبط باجساد هيوليّة ولها حياة خاصّة بها . امّا الانسان فانَّ نفسهُ لا تنال معارفها نوراً من المعلومات ولكن بتوسّط الحواس التي تشاهد المنظورات المحسوسة وتقدّمها النفس فالنفس تجرّدها عن الهيولي لتدرك جواهرها . فاذا مات الانسان وبطلت الحواسّ فقدت النفس آلتها لمعرفة المحسوسات . فمن هذا القبيل الموت نقص للانسان ليس بكمال . (ثالثاً) تفيدنا الاسفار المقدّسة انَّ الموت أتى دخل العالم كعقاب الخطيئة وليس العقاب كمالاً . (رابعاً) لا ننكر انَّ النفس الروحانيّة يمكنها ان تحيا دون الجسد الهيوليّ الّا ان النفس بافتراق جسدها تصبح في حالة مخالفة لكيانها الطبيعي اذ تعيش دون رفيقها الذي خُلق لاجلها وخُلقت لاجلهِ فلا تزال تحنّ الى مركّبها الاصليّ . (خامساً) تتفق كل الاديان على حقيقة البعث وقيامة الاجساد في يوم الدين . فلو كان الموت كمالاً لكان اولى بالانسان ان لا تُبعث الاجساد فتبقى النفس في كمالها وهو قول باطل . على انّنا نعلم انَّ اجسادنا ستقوم في حالة المجد فلا تعوق النفس عن حياتها الالهيّة وتنال هي ايضاً نصيبها من سعادة النفس

فقد ظنّ ظناً كاذباً لانّ الالم انّما يكون للحيّ والحي هو القابل اثر النفس فاما الجسم الذي ليس فيهِ اثر النفس فانهُ لا يألم ولا يحسّ فاذن الموت الذي هو مفارقة النفس البدن (77ᵃ) لا ألم له لانّ البدن انما كان يألم ويحسّ بالنفس وحصول اثرها فيهِ فاذا صار جسماً لا اثر فيهِ للنفس فلا حسّ له ولا ألم فقد تبيّن انّ الموت حال للبدن غير محسوس ولا مؤلم فانهُ كان يحسّ ويألم بهِ

واما من خاف الموت لاجل العقاب فليس يخاف الموت بل يخاف العقاب والعقاب انّما يكون على شيءٍ باقٍ منهُ بعد الموت فهو لا محالة يعترف بذنوبهِ وافعال سيئة يستحقّ عليها العقاب وهو مع ذلك معترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات فهو اذن خائف من ذنوبهِ لا من الموت ومن خاف عقوبتهُ على ذنبٍ وجب عليهِ ان يحترز ذلك الذنب ويجتنبهُ والافعال الرديئة التي تسمّى ذنوباً انّما تصدر عن هيئات رديئة والافعال الرديئة التي هي النفس هي الرذائل التي احصيناها وذكرنا اضدادها من الفضائل فاذن الخائف من الموت على هذه الوجوه وهذه الجملة هو جاهل ما ينبغي ان يخاف منهُ وخائف مما لا اثر لهُ (78ᵃ) ولا خوف منهُ. وعلاج الجهل العلمُ ومن علم فقد وثق ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها ومن سلك طريقاً مستقيماً الى غرض افضى اليهِ لا محالة وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين وهو حال المتيقّن في دينهِ المتمسّك بحكمتهِ

واما من زعم انهُ ليس يخاف الموت وانّما يحزن على ما يتخلّفهُ من اهل وولد ومال وتأسف على ما لا يفوتهُ من ملاذ الدنيا وشهواتها فينبغي ان يُبيّن لهُ انّ الحزن لاجل ألم ومكروه على ما لا يجدي عليهِ الخوف طائلاً وانّ الانسان من جملة الامور الكائنة وكل كائن فاسد لا محالة فمن احبّ ان لا يفسد فقد احبّ ان لا يكون ومن احبّ ان لا يكون فقد احبّ فساد ذاتهِ وكانهُ يحبّ ان يفسد وان لا يفسد ويحبّ ان يكون وألا يكون وهذا محال

وايضاً لو جاز ان يبقى الانسان لبقي من كان قبلنا ولو بقي الناس على ما هم عليهِ من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الارض وانت تتبيّن ذلك مما اقول. ترى لو انّ رجلاً واحداً (78ᵇ) ممّن كان منذ اربعمائة سنة هو موجود الآن وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن ان يحيا اولادهُ موجودين كامير المؤمنين عليّ رضيَ الله تعالى

منه. ثم ولد له اولاد وللاولاده اولاد وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم احد كم مقدار من يجتمع منهم في وقتنا هذا فانك تجد اكثر من عشرة آلاف الف رجل وذلك ان تقيتهم (بقيتهم) الآن مع ما اصابهم من الموت والقتل اكثر من مائة الف رجل . واحسب كلّ من في العصر كذلك فانهم اذا تضاعفوا هـذا التضاعف لم تضبطهم كثرة. ثم امسح بسيط الارض فانهُ محدود معروف المساحة لتعلم انّ الارض لا تسعهم قياماً متراصين فكيف قعوداً او متفرّقين ولا يبقى موضع لعمارة تفضل عنهم ولا مكان لزراعة ولا مسير لاحد وذلك في مدّة يسيرة من الزمان فكيف اذا امتدّ الزمان

فهذه حال من يتمنّى الحياة الابديّة ويكره الموت ويظنّ ان ذلك ممكن من الجهل. فاذن الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير (79ᵛ) الالهي هو الصواب الذي لا مَعدل عنه وهو غاية الجود الذي ليس وراءهُ غاية فالخائف من الموت هو الخائف من عدل الله وحكمته بل هو الخائف من جوده وعطائه فالموت اذن ليس بردًى وانما الردى هو الخوف منهُ فانّ الذي يخاف منهُ هو الجاهل به وبذاته وحقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن. وفي هذه المفارقة ليس فساد للنفس وانّما هو فساد التركيب فاما جوهر النفس الذي هو ذات الانسان ولبّه وخالصته فهو باقٍ وليس بجسم فلزم فيه ما لزم في الاجسام بل لا يلزم شيٌ من اعراض الاجسام اي لا يتزاحم في المكان لانهُ لا يحتاج الى مكان ولا يحرص على البقاء الزماني لاستغنائهِ عن الزمان وانّما استفاد هذا الجوهرُ بالحواس والاجسام كمالًا فاذا كمل بها ثم تخلّص منها صار الى عالمه الشريف القريب الى بارئهِ ومنشئه عزّ وجل والرجل الذي يتصدّق عن اخيه الميت ويقضي عنهُ الدين يَسعد بذلك الميت وذلك انّ النفس ان كانت واحدًا كما زعم (79ᵛ) جماعة (١ فالمتصدق نفسُهُ وتلك الاخرى وسائرُها شيء. واحد وان كانت غير واحدة فلا يفضل المتصدق ذلك الفضل الّا بمشاكلة تلك النفس وعلى هذا ايضاً شُبه بشيء. واحد والسلام

تمّت الرسالة والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعدهُ وآله وصحبه وسلّم

١) هذا زعم باطل قال به بعض الفلاسفة القدماء والقول الصحيح انّ النفوس مع وحدة الطبيعة البشريّة تتفرّد في كل انسان وتسعد او تشقى باعمالها لا باعمال غيرها

اصول البلاغة عند العرب

للاب خليل اده اليسوعي (تابع)

بيّنا في عدد سابق الفرق الاساسي الفاصل بين اصول البلاغة عند المتأخرين من العرب واصولها عند الفرنج وان هؤلاء يعتبرون قبل كل شيء الموضوعات نفسها ليمثلوها خير تمثيل واولئك ينظرون الى المعاني المجرَّدة ليعبّروا عنها افصح تعبير. وقد ادَّى هذا الاختلاف في المبدإ الى فروق اخرى نذكر هنا اهمّها

لمَّا كانت مادة البلاغة عند الفرنج الموضوعات نفسها وكانت الموضوعات لا نهاية لها اصبح مجال الصناعة البيانية عندهم متَّسعاً جداً لانهُ يتناول كل الاشياء وكل الحقائق. حتى العلوم يمكن ادخالها في دائرة البلاغة اذا عرف الكاتب التصرف بها (١

ثم ان الاشياء متنوعة جداً فلزم ان تكون رسومها وغاياتها الفنيَّة كثيرة الانواع ايضاً ولما كانت الصناعة الفرنجية تتوخى ايضاً تلك الرسوم المتنوعة افضى بها الامر الى تعداد فنونها ووضع قوانين مختصة بكل منها ففرقت بين الرواية والمثل والوصف والخطبة والمقالة العلميَّة والتاريخ والرسالة والمأساة والمهزلة والملحمة وهلمَّ جرًّا

امَّا المتأخرون من البيانيين عندنا فعلى خلاف ذلك لانهم لمَّا جعلوا مادَّة فن البيان المعاني المجرَّدة فقط وغايته حسن التعبير عنها حصروه وضيَّقوا مجاله لان المعاني المجرَّدة كليات هي من طبعها قليلة. مثال ذلك المعاني الشائعة في المديح او الهجاء او الرثاء فان احببتَ ان تعدَّها وجدتَها لا تربي على عدد الانامل بكثير. وما يزيد في حصرها ايضاً ان المعاني المجرَّدة لا تصلح كلها للبروز في الصورة البيانية التي جعلوها غاية الصناعة. كيف يمكنك مثلاً انشاء كتاب في التاريخ يكون لهُ مسحة البلاغة المقصودة من الصناعة كما عرَّفها البيانيون ان كنتَ لا تنزع الَّا الى استعارة تستنبطها او تشبيه تنسّقهُ او شكل بديعي تبتكره؟ او كيف يمكنك اجلاء المحاسن الطبيعيَّة التي تفيدنا

(١) وقد برز في هذا الفنّ كثيرون منهم رينان فان الكل يشهدون الآن ان فضل هذا الكاتب ليس في سمو مداركه وصدق معارفه الدينيَّة بل في بديع الصورة البيانية التي ابرز فيها الاكتشافات العلميَّة

عنها العلوم ان كان هنك التكلّم بالمجاز والكناية وما شاكلها من انواع البيان او البديع حين يكون استعمال المعاني الحقيقيّة من شروط الوضوح والتدقيق ؟ فإمّا ان تجتنب هذه المواضيع ولا تتعرض لها البتة وإمّا اذا بحثت فيها ووفّيتها حقها من البيان والتدقيق ان لا تعتبرها من المؤلفات البيانيّة . ولا تخرج لك الأمن احد هذين البابين . ولذلك ترى البيانيين قد حصروا البلاغة في بعض ابواب تصلح لاستعمال البديع كالمدح والهجاء والرثاء والفخر وما شاكلها ولم يجعلوا منها فنّ التاريخ . وكذلك لم يعدّدوا فنون البلاغة طبقًا لمبدئهم الاساسي . لان تميز الفنون وتبويبها لا مدحة عنها اذا كان الغرض من الصناعة البيانيّة تجميل الاشياء على تنوع اصنافها . وأمّا اذا كان الغرض منها التعبير عن المعاني المجرّدة فلا يبقى للتفصيل محل . لان ايراد المعنى الواحد بأساليب بيانية وبديعية مشترك بين كل الفنون البيانيّة الممكنة . فلا فرق مثلًا بين الاستعارة في مقام المدح وبينها في مقام الهجاء . فان اختلفت مادّتها فلا تختلف صورتها وشروط حسنها وهو الوجه المعوَّل عليه في وضع الاصول . فترى اذًا ان تصور البيانيين للبلاغة اوجب عليهم حصر اصولها واغناهم من تبويب فنونها

*

الاصل الثاني الذي ذكرناه وقلنا بوجوب مراعاته في الصنعة هو طريقة تصوير الموضوعات في نفس الصانع (l'artiste) لان الاشياء لا تخرج في الصنعة كما هي في الحقيقة بل كما هي في نفس المؤلف . فالنفس كمرآة تنعكس فيها الانوار المنبثة من الموضوعات فتمثلها فيها . فاذا كشفت النفسُ القناع عن تلك الصورة وابرزتها للعيان ادرك الشاهد بواسطتها حقيقة الاشياء الممثّلة . الّا ان الفرق عظيم بين المرآة المادّيّة والنفس البشريّة وبين انطباع الاشياء في تلك وتمثلها في هذه . فان الاشياء الخارجيّة تنطبع في المرآة المادية كما هي بشرط ان تكون في دائرتها فلا تختلف المعرفة الناشئة من معاينة الاشياء رأسًا والمعرفة الحاصلة من مشاهدة صورتها . وامّا تمثّل الموضوعات في النفس البشريّة فليس كذلك فانه كثيرًا ما يختلف باختلاف قوى النفس والعوامل الطارئة عليها والاغراض التي تقصدها

اما اختلافها باختلاف قوى النفس فظاهر . فليس البشر كلهم سواء في قوّة النظر

والماينة. فهذا يرى في مشاهدات الاحوال ما لا يراه ذاك. يجد المصور البارع في ابسط الاشياء عالماً لا يفطن له من ليس له المام بهذا الفنّ وكذا قل عن الشاعر والكاتب. كان الشاعر الفرنسوي الشهير لافونتين (La Fontaine) يقضي ساعات طوالاً غائصاً في تأمل حركات النمل مفتوناً بما يراه من عجائبها بينا الفلاح الذي يراها يومياً لا يلتفت اليها طرفة عين اذ لا يرى فيها ما يستحق الالتفات. وذلك لان دقّة النظر ولطف الحسّ ورقّة الشعور في الصانع تمدّه لادراك ما لا يدركهُ غيره كما ان حدّة البصر تكشف للناظر ما يخفى على من لم يُرزقها

ثم ان العوامل العرضية الطارئة على النفس تغيّر اوجه انفعالاتها وبالتالي صور الاشياء التي تنطبع على صفحاتها فربّ منظر واحدٍ يثير الفرح في قلب انسان والحزن في قلب غيره. بل ربّما اثار الحزن تارةً والفرح اخرى في قلب الرجل الواحد كما نختبره يومياً. فالفرح يزداد فرحاً والحزين حزناً امام مشهد طبيعي جميل كأنّ ذاك يرى من الطبيعة وقد زهت محاسنها صديقاً يشاركه في سروره وهذا يرى منها عدواً يشمت من مصابه. وعليه اصابت فارعة اخت الوليد بن طريف اذ اقبلت على الشجر تشكو نضارته حين أُصيبت باخيها:

ايا شجرَ الخابور مالكَ مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريفِ

وليس الامر كذلك في الحقيقة كما لا يخفى. الّا انّا من طبعنا ننسب الى المخلوقات في حركاتها وسكناتها ما يطابق عواطفنا. وان هذا الميل فينا يغيّر رسم الموضوعات في النفس. وكذا قل عن الغاية التي يقصدها الصانع في صنعه فانها تغيّر وجهة الصورة التي تطبعها الامور في نفسه. هذا رجلٌ متهم بجناية فان خصمه ومحاميه ينظران الى التهمة ذاتها ولكن شتان بين نظر هذا ونظر ذاك. هذا ينظر الى الحوادث لينفي منها ما يؤثم صاحبه وذاك ليطلب منها ما يوجب الحكم والقضاء عليه. فترى ممّا قلنا ان الاشياء ان كان لها وقع في النفوس فللنفوس عليها تأثير وردّ فعل يغيّر تمثيل الموضوعات فلا بدّ من استلفات خواطر الكتّاب الى ذلك ليقفوا عليه ويجروا في مؤلفاتهم على احكامه. وان الاصول العربيّة خلوٌ من ذلك والسبب واحد وهو ان هذه الاعتبارات هي عندهم مما وراء الصناعة اذ الصناعة لا تهتم الّا بابراز المعاني المصوّرة للاشياء بعد تولّدها في الذهن بقالب البيان والالفاظ

وهناك مسألة اخرى مهمّة جداً نشأت ايضاً عن ضروب التمثيل للموضوعات وطرقها . قلنا ان العوامل الطارئة على النفس والاغراض التي تتوخاها تؤثر في تخيل الاشياء ذواتاً كانت ام احوالاً . أفليس ذلك نقصاً وخللاً ? أليس حسن الصنعة قائماً بتمثيل الموضوعات تمثيلاً كاملاً كتمثيل المحسوسات بالفوتوغرافية ? تلك مسألة اساسية في الفنون وقد تعدَّدت المذاهب في طرق حلها . فقال قوم ان كمال الصنعة في محاكاة الطبيعة بكل ما فيها . وذهب اخرون الى ان المحاكاة ينبغي ان تقتصر على اهمّ ما في الموضوعات واغفال الباقي وان انتقاء ما يحسن تمثيله من اول شروط الصناعة . وهو مذهب اليونان وكل من يمشي اليهم وهو المذهب الصحيح اتبعه اصحاب الذوق السليم في كل عصر وقطر . ولكن اصحابه يتفرعون ايضاً . فريق منهم يستحسن محاكاة الطبيعة كما هي دون زيادة عليها ولا نقصان واخر يرى وجوب تحسين الطبيعة واختيار اجود ما يكون في كل جنس وصنف . وعليه اذا وصفوا شخصاً او امراً او حالاً زادوا في الوصف ما يحتمل الموصوف من غير ان يخرجه من حيّز الممكن . واحبّ بعضهم اطلاق العنان لخيلتهم ورأوا ان الصنعة الجيدة في تمثيل كل ما عنّ لهم وراق في عينهم . وربّما ذهب اخرون الى اعتبار الموضوعات كرموز تدلّ على معانٍ خفيّة وكالسنة ناطقة تعبّر عن اسرار سامية لا يدركها سوى الشاعر فاجتهدوا في تصويرها لا لذاتها بل لبيان مدلولاتها

ولم نذكر هذه المذاهب لأننا نريد تمام وصفها بل لننبه القارئ الشرقي الذي ليس له علمٌ كافٍ بآداب الفرنج على ما عندهم من المباحث الخطيرة في العلوم البيانية . وإن هذه الابحاث التي من شأنها تعيين النسبة الموجودة بين الاشياء وصورها النفسانية لا وجود لها عند المتأخرين من بيانيي العرب ولا عجب لانهم حصروا فن البلاغة في حسن التصوير للمعاني لا للاشياء مع فصاحة التعبير عنها فلا يبقى بين البيان المصوّر واللسان المعبّر محلٌّ لتحقيق النسبة بين الاشياء والمعاني

ثم بعد ما يتصور الصانع موضوعه في الذهن يحتاج اذا اراد ابرازه في قالب الكلام الى تقسيمه وتجزئته وتنظيم تلك الاقسام والنظر في علاقاتها ونسبها وايفاء كل منها حقها فيقدّم ما يجب تقديمه ويؤخر ما يجب تأخيره ويطنب او يوجز ويعرّض او يصرّح او يخفي الى ما شاكل ذلك مما يشير اليه الذوق السليم . ولا يتهيأ ذلك للكاتب

او الخطيب الّا بعد العناء. وذلك لان العقل على بساطة جوهره وروحانيته يدرك الامور بطريقة تناسب طبيعته . فربّما اكتفى بلمحة حتى يرى كل ما في موضوع فهمه . ولكنهُ اذا اراد اخراجه الى حيّز المحسوسات وتكوينه في جسم هيوليّ من الخيال والالفاظ اضطرّ الى تفصيل مرئيّاته وتحديدها وتمييزها ومراعاة انسابها لان الاشياء المادّية مجزأة لا يمكن وصفها دون وصف اجزائها . وهنالك التعب وشقّ النفس لا يقدّره الّا من عاناه وقد شبهوه باوجاع الخاض . فالتخفيف وطأته على الصانع وضع الفرنج في كتب البلاغة اصولًا هي مفيدة جدًّا بل ضروريّة لتخريج الاحداث في اول امرهم وان كان يمكنهم الاستغناء عنها بعد طول الارتياض ومزاولة فن التأليف. امّا عند المتأخرين من علماء البيان العربي فقد أُهملت ولا عجب لان الفنّ عندهم لا يبدأ دوره الّا بعد الذي ذكرناه من التفصيل والتنسيق اعني عند ما يجب التعبير عن المعاني المصوّرة لأجزاء الموضوعات واقسامها المحدودة. فترى مما سبق انّ فنّ التعبير آخر فصل من فصول ثلاثة تدور عليها الصنعة الفنية وانّ المتأخرين من علماء البيان عند العرب اجتزأوا بهِ واعتنوا بوضع اصوله ضاربين صفحًا عن الفصلين الاولين وان كانا ارفع مكانًا منهُ واوعر مسلكًا

*

بيّنا موضوع الصناعة عند العرب وحدّدنا دائرتها على مذهب السكاكي ومَن شايعه الى ايامنا كما فهمناه من مطالعة مؤلفاتهم فبقي علينا ان نبدي ما نراه في هذه الطريقة المدرسية لان غايتنا من هذه المقالة عمليّة وهي البحث ان كانت الاصول البيانية القديمة كافية وافية باغراض الادب في عصر انقلبت فيهِ احوال المدنيّة والحضارة التي كانت الصناعة القديمة صورتها ولسان حالها

واول ما يتحتّم علينا النظر فيهِ المبدأ الذي اتخذه البيانيون اساسًا لصناعتهم . فهل يحسن بارباب البيان ان يجعلوا محور قوانينهم المعاني المجردة . بل هل صدقوا النظر لمّا ظنوا ان البلاغة كلها انما هي « قلب مفكّر وبيان مصوّر ولسان معبر » ؟ هل يمكننا ان نستصوب تصورهم للبلاغة وللدور الذي عينوه لها لمّا حصروه في كسو المعاني المجردة وشاحًا خياليًا او سبكها في قالب حسي ؟ لا لعمري وسبب ذلك ظاهر بعد الذي قدمناه من شروط الصناعة الحقيقيّة . لان المعاني بوجه الاجمال انّما هي دلائل الاشياء

فكل فائدتها صادرة عن علاقاتها مع مدلولاتها وحسن تصويرها لها . والحال ان المعاني المجردة المنتزعة عن الذوات لا تفيد من الاشياء سوى احوال كليّة تنطبق على كل افراد اجناسها وانواعها لا تختص بواحدٍ دون غيره . فاذا اكتفى معلم البيان بمعالجة هذه الكليّات دون الموضوعات افسد عقل الولد لانهُ لا يريه الاشياء الّا بواسطة صور ناقصة . فتقتصر معرفة الولد على بعض الاوجه يظنها كاملة فيحكم بموجبها فيكون حكمه جزافاً . وبعبارة اخرى : من اقتصر في معارفه على تحصيل المعاني الكليّة عاش في عالم وهميّ خيالي لان الكليّات لا حقيقة لها في عالم الوجود . ومن ثمّ فاتته فوائد لا تحصى ولاسيما عادة الاختبار والمعاينة التي هي اساس العلوم والمعارف العصريّة كلها . ولا شك في ان القرّاء اختبروا غير مرّة صحة قولنا . فمن منهم لم يلاقِ متأدبين على المبادئ القديمة يتقلبون بين احوالنا الحاضرة كالحيارى لا يفهمون منها شيئاً ولا يدرون كيف يتصرفون فيها وليس ذلك الّا لانهم اجتزأوا بالمعاني المودعة في بطون الكتب والدفاتر وكلها ترتقي الى الف سنة على الاقل وجعلوا همّهم الوحيد وشغلهم الشاغل نظمها في كلام عذب خلوا من حلاوته تذهلوا عن المشاهدات وحقائقها . أليس عادة المولدين من وصف الدمن والطلول التي لم يعرفوها الّا من مطالعة الشعراء المتقدمين من نتائج هذه الطريقة ؟ فلو عرفوا ان الصناعة الحسنة انما تكون في وصف الحقيقة وان اساسها الاختبار صدق النظر لضحكوا من انفسهم وعرفوا بطلان اوصافهم

يظن كثيرون ان علم البيان انما غايته اتحاف الطالب قوالب يسبك فيها افكاره عند الحاجة . ذاك لعمري وهم يبخس صناعة البلاغة حقها ورفيع مقامها لانها تصبح كآلة فارغة لا خير فيها . انما الصناعة البيانيّة صناعة شريفة تهذب كل قوى النفس وتعلم الانسان حسن تصوير الاشياء ولاسيما اخلاقه وانفعالاته ووجداناته ونسبها مع العالم الظاهر والعالم الخفي . ولذلك تقتضي معرفة الاخلاق فضلاً عن الالمام بباقي المعارف ومن هذا يتضح لك ان الاقتصار على المعاني المجردة لا يجديك النفع الذي يحق لك ان تجتنيه من الأدب

ثم حصر البلاغة في التعبير يحرم الطالب فائدة عظيمة يجدها في الاصول الفرنجيّة اريد بها حسن التنسيق واجادة النظام والترتيب في سياق الافكار والعواطف . لا يجهل احد ان الرومان ملكوا العالم بقوّة النظام الذي جملوه في كل فروع الهيئة الاجتماعيّة

من جندية ومالية وادارة وعدلية فمكنتهم من قهر العالم والتغلب عليه . وما كانت تلك القوّة العجيبة في اعمالهم ألّا تكونها في نفوسهم ولم تبلغ تلك الدرجة العليا من النفاذ ألّا لأنهم روّضوا انفسهم وعزّزوا فيها الملكة الغريزيّة التي كان اودعها فيها الخالق. ولان خير الوسائل الى بلوغ هذه الغاية لن لم اقل الوسيلة الوحيدة هي تعويد عقول الناشئة لزوم النظام والترتيب في افكارهم . فاذا صحّ ذلك تحقّقت بلا شك انّ الكتب المدرسيّة العربيّة في البلاغة عاجزة عن بلوغ هذه الغاية الشريفة فهي اذاً ناقصة من هذا القبيل

اخيراً حصر البلاغة في فن التعبير اعظم مدعاة للتصنّع والتكلف ولشدّ اسباب الانحطاط للآداب العربيّة . والبرهان على ذلك واضح لان المعاني كما قلنا وكما شهد كثيرون من البيانيين قليلة فلا يمكن التصرف بها الى ما شاء الله فان لذلك حدّاً معلوماً وغوراً قريباً . نعم انّ كتّاب العرب بعدوا هذا الحد وفسحوا المجال الى غاية لا غاية وراءها . وهذا فضلهم . غير انهُ من الثابت ان هذا الميدان محدود وان من اراد ان يبدع فيه اضطر الى ركوب الغريب المكروه وهو الذي يتحققهُ كل متأمل في آداب المتأخرين فاذا وصلت الصناعة الى التنافس بالتعابير الغريبة فقُلْ انها ماتت لأنها تصبح جسماً بلا روح

ثم في اعلاء شأن التعبير وحصر البلاغة فيه مفسدة اخرى . يظن المنشئ ان استعمال البيان والبديع لكل معنى من ضروريات البلاغة حتى ان الكلام لا يُعدّ بليغاً اذا كان عارياً منها . هذا الذي حمل احد الادباء المتقدمين على ترجمة الالياذة الى قول استغربناه في اول الامر وهو ان اقوال الالياذة ليست شعريّة . ولكنّا الآن لا نستغرب انتقاد هذا الاديب . لانهُ مطابق كل المطابقة للمبادئ التي تلقّنها من كتب الاصول البيانيّة عن وجوب الاشكال البيانيّة والبديعيّة في كل بيت من الشعر وكل فقرة من النثر . غير ان هذا الوهم فاسد لان الكلام قد يكون بليغاً مثيراً للعاطفة الشعريّة « مخيلاً » ولا يكون فيه من البديع والبيان ألّا القليل مثل الالياذة . فالكل يحكمون لها بسموّ المنزلة في الشعر ومن مميّزاتها السذاجة في التعبير . واذا اردت شاهداً آخر قريباً منك خذ سفر التوراة وتصفّح رواية يوسف او اقرأ مثل الابن الشاطر في انجيل لوقا ثمّ احكم

هذا في الابحاث التي تركها البيانيون والاساس الذي وضعوه لقواعد البلاغة .

وليست هذه القواعد نفسها ان اعتبرناها الآن خالية من الشوائب. لا اتكلم عن علم المعاني لانه كما قلت ملحق بعلم النحو اكثر مما هو فرع لفن البلاغة فالكلام اذاً من البيان والبديع. اما البيان فعندنا انهم ليسوا بمصيبين اذ لا يعتبرون له فائدة سوى تفاوت الوضوح في استعمال طرقه المختلفة. لان التشبيه والاستعارة وانواع المجاز والكناية ليس الغرض منها الايضاح او الاخفاء. انما الغرض منها كسو المعاني الروحية جسماً خيالياً اذا عُرض على القارئ او السامع ولج نفسه من باب مخيلته واثر فيها تأثيراً شديداً وذلك لان الانسان ليس روحاً مجرداً يكتفي بالمعاني المجردة انما هو روح في جسد اعني روحاً ذا قوى مشتركة بين الروح والجسم وهي المخيلة والحس فاذا رمت من نفس سامعك انفعالاً شديداً فاجعل كلامك مؤثراً في كل قواه الروحية والحسية والمشتركة ولذلك ان زدت على الصور البيانية عذوبة الالفاظ وايقاع الاوزان كان الكلام — وهو الشعر — بالغاً النهاية في اسباب التأثير. وكذلك لا نستصوب اعتبارهم للبديع اذ جعلوه حلية للكلام لا تزيده الا حسناً عرضياً يُستغنى عنهُ. خذ البديع المعنوي مثلاً وقل لي كيف يمكنك الاستغناء عن جملة من اشكاله مثل الهتاف وتجاهل العارف والاستفهام الخ اذا كانت الحاجة تدعوك الى استعمالها. كيف يمكنك ترك الهتاف ان اختلجت في صدرك العواطف واضطرمت نيران الاهواء؟ أما ترى ان الهتاف امر طبيعي لا شكل صناعي؟ وكذا قل عن باقي الاشكال

اما البديع اللفظي فلا اهمية له الا الذي ذكرناه آنفاً عن مفعول الالفاظ والاوزان ولذلك ينبغي ان لا يقدم عليه الكاتب او الخطيب عمداً والا وقع في هوة التصنع والتكلف واشتغل بالواسطة عن الغاية ولذلك كان الاكثار من تعديد اصنافه في المؤلفات مدعاة للمغالاة في استعمالها ومعثرة في سبيل المتأدبين الاحداث

غير ان العيب الفاحش سواء كان في البيان او البديع انما هو تعداد الاشكال البيانية او البديعية وتقسيمها وتنصيلها وتحليلها الى ما لا نهاية وراءهُ. فقل لي ناشدتك الله ما الفائدة من كل هذه الاشكال؟ أتظن ان الشاب اذا فهمها كلها اصبح قادراً على التأليف؟ لا لعمري. انه يبرهن عن دقة في النظر واستعداد للفلسفة لا عن مقدرة على البلاغة لان الصناعة مجموع قوانين تساعد على العمل ليس الا. والحال كيف يمكنك ان تعي في صدرك مائة او مائة وخمسين نوعاً وتميزها ولا تخلط بينها؟ وهبك

حفظتها اتظن انك تستطيع ان تنتبه الى وضع كل منها في مكانه وتشتغل مع ذلك بالمعاني ؟ ذلك من المحال وان فعلت كان كلامك تافهًا ليس فيه من البلاغة مسحة كما تراه في كل البديعيات. والصواب في ذلك ان ترشد الناشئ الى بعض الاصول القلائل وتعلمه اذا اراد النظم ان يستعين بكل قواه العقلية والخيالية والحسية فيخرج الكلام محلًى بانواع البيان والبديع عفوًا بلا تعمُّد ولا تصنع. وان قلت ان تعداد اشكال البيان يشحذ القرائح اجبنا ان ذلك لو صحَّ كان مقبولًا في سالف الاعصر حيث كانت البضاعة العلميَّة قليلة والوقت موفورًا ولكنهُ في زماننا خسارة وقت ثمين لا محالة

هذا ما نراه في اصول البلاغة المدرسية عند العرب استخرجناه من كتب البيانيين ولم نعتبر تأثيره في مؤلفات الشعراء والخطباء. تاركين هذا البحث لمقالة اخرى. وبهذا قبل ذلك مقابلة بين المذهب المدرسي الذي بحثنا عنهُ ومذاهب المتقدمين من البيانيين كابن قدامة وأبي الهلال العسكري وابن رشيق وعبد القادر الجرجاني والرازي وابن الاثير الذين وصلت الينا مؤلفاتهم. فان ساعدتنا الظروف وصفناها ان شاء الله

الآداب العربية
في القرن التاسع عشر

بحثٌ تاريخي انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

مشاهير المسلمين (تابع)

(الالوسيَّان عبد الله وعبد الباقي) وفي هذه المدة قضى اثنان من الالوسيين نحبهما في العراق. وهما ابنا السيد العلَّامة شهاب محمود افندي الالوسي الذي سبق لنا تعريف فضلهِ (المشرق ١١ : ٢٧٣) اعني عبد الله وعبد الباقي. فالسيد عبد الله بهاء الدين افندي ولد سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) فقال السيد عبد الغفَّار الاخرس مؤرخًا لمولدهِ:

ليهنك يا نحرير اهل زمانهِ ويا كاملًا عنهُ غدا الطرفُ قاصرا

بطفلٍ ذكيٍّ قد اتاك وانما يضاهيك بالاخلاق سرًّا وظاهرا
وبشّرتي فيهِ فقلتُ مؤرخًا بولد عبد الله نلتَ البشائرا

فلمَّا ترعرع اخذ العلوم عن والدهِ الى ان أُصيب بوفاتهِ وهو اذ ذاك ابن اثنتين وعشرين سنة فجزع لموتهِ وكاد لحزنهِ يلحق بابيهِ . ثم انكبَّ على الدرس واجتمع ببعض افاضل وطنهِ فما لبث ان فاقهم واقبل على التدريس فحصل بهِ على شهرة واسعة وانتظم في سلك اهل الطريقة النقشبنديَّة . ثم بُلي بانواع الاسقام فخرج من وطنهِ قاصدًا الاستانة العليَّة لكنَّ اشقياء العربان نهبوا اثقالهُ فعاد الى بغداد صفر اليدين . وفي آخر امرهِ تولَّى القضاء في البصرة فاكرمهُ اهلها وعرفوا قدرهُ لولا انهُ تأذَّى بحمَّياتها القتَّالة فخرج منها بعد سنتين ولسان حالهِ ينشد مع معاصرهِ الشيخ صالح التميمي :

ومتى تسيرُ ركائبي عن بلدةٍ ابدًا اقام قتاؤها بقِناها
لا فرق بين شمالها وجنوبها وقَبُولها ودَبُورها وصباها
ما ان تحرَّكت الغصونُ بارضها الَّا تحرَّك في الجسوم اذاها
اشجارها خضرٌ واوجهُ اهلها صُفرٌ بما كَسَفَتْ السقام جباها
لولا قضاء الله حتمٌ واجبٌ أبتِ المروءة ان ادوس ثراها

فما وصل الى بغداد حتى مات بعد أيام ١٢٩١ (١٨٧٤) ولهُ من العمر ٤٣ سنة وكان السيّد عبد الله كثير التديُّن ليِّن الجانب محبًّا للفقراء لا يأنف من مخالطتهم وقد امتاز بحسن نثرهِ وجزالة تعبيرهِ . ومن تآليفهِ رسائل ومقالات مفيدة وشروح في علمي المنطق والبيان وألَّف كتاب الواضح في النحو وكتابًا في آداب الصوفيَّة

امَّا اخوهُ فهو السيّد سعد الدين عبد الباقي وقع مولدهُ سنة ١٢٥٠ فأرخهُ الشاعر عبد الحميد الاطرقجي :

طربًا بمن سرَّ الورى ميلادهُ وسرى نسيمُ اللطفِ في الآفاقِ
يا سادتي بشراكمُ فبمن بدا متخلقًا بمكارم الاخلاقِ
فردًا أتى وبهِ اشمْتُ مؤرخًا تمَّ السرورُ لكم بعبد الباقي

اخذ عن والدهِ كأخيهِ ثمَّ عن الشيخ عيسى البنديجي وزار الحجاز وتولَّى القضاء في كركوك مركز ولاية شهرزور ثم في مركز ولاية بتليس وسافر الى دار السعادة ولهُ عدَّة مصنَّفات اخصُّها القول الماضي فيما يجب للمفتي والقاضي واوضح منهج في مناسك

الحجّ الذي طُبع في مصر واسعد كتاب في فصل الخطاب وغير ذلك ممَّا يشهد له برسوخ القدم في المعارف. توفي في مصر سنة ١٢٦٨ (١٨٨١)

(ابو النصر عليّ) واشتهر في مصر في هذه الحقبة الاديب المصري ابو النصر عليّ ولد في منفلوط وفيها كانت وفاتهُ سنة ١٢٩٨ (١٨٨٠–١٨٨١) نظم الشعر في مقتبل الشباب واصبح من فرسان ميدانهِ فنما خبرهُ الى خديوي مصر اسماعيل باشا فقدَّمهُ واجازهُ ولابي النصر عدَّة قصائد غرّاء فيه وفي امراء الدولة الخديويَّة وقد رافق اسماعيل باشا لمَّا وصل الى الاستانة ثم مدح بعدهُ الحضرة التوفيقيَّة. ولابي النصر ديوان كبير طُبع في مطبعة بولاق سنة ١٣٠٠ ضمَّنهُ اقوالًا منتخبة في كل ابواب البلاغة ومعاني الشعر فممَّا استحسناهُ قولهُ في الخمر وقد نحا في وصفهِ طريقة الصوفيين:

بنتُ كرمٍ دربها بنتُ الكرامْ	وهي بكرٌ زفَّها ساقي المدامْ
شمسُ راحٍ في اصطباحٍ اشرقتْ	في سماء الكاسِ كالبدرِ التمامْ
كم تجلَّى كاسُها عن لؤلؤٍ	من حُبابٍ كالدراري في انتظامْ
انَّ لي عنها حديثًا سرُّهُ	لا يُضاهَى وهي لي اقصى المرامْ
لو درى اهلُ التقى اسرارها	اسقوا ابناءهم قبل الفطامْ
لا تسَلْني عن معانيها وسَلْ	عن صُلاها وسناها باحتشامْ
قال صِفْها قلتُ دَعْني انَّها	صورةٌ كالجسم عندي والسلامْ
قال زدْني قلتُ ما المسؤول عنـها	بادرى منها يا هذا الغلامْ
قال قلْ في كرمها مخلوقةٌ	نزهةٌ للناسِ من سامٍ وحامْ
ما رآها عابدٌ الَّا انثنى	عن سجودٍ وركوعٍ وقيامْ
راحةُ الارواحِ في اقداحها	ابأنَّنا انَّما تُجري السقامْ

وهي طويلة. ومن حسن شعرهِ قولهُ يصف سفر الحضرة التوفيقيَّة الى الصعيد سنة ١٢٨٧:

زار في موكبٍ كعقد اللآلي	فازدهى بالقدوم صفو الليالي

الى ان قال:

فازدهى رونقُ الصعيد جمالًا	وتحلَّت ارجاؤهُ بالجلالِ
وروى النيلُ عن رُواهُ حديثًا	يشرحُ الصدر شرحهُ في المقالِ
حيث دُقَّت بالشاطئَيْنِ طبولٌ	والاهالي تفوقُ عدَّ الرمالِ
وتلاقوا بفضَّةٍ سابغاتٍ	فترى الليث فوق ظهر الغزالِ

وتوالوا في سيرهم فاضاءَت حليةُ البيض بين سُمر العوالي
وجميعُ البلادِ ابدت سرورًا ناشراتٍ أعلامها بابتهالِ
حلَّ في منيةِ الخصيب فسُرَّت وتقوَّى سلطانُها بالكمالِ
زار في منفلوط بيت امير زادهُ رفعةً بحسن احتفال
وباسيوط لا تسَلْ حين وافى عن بلوغ المنى وقبضِ السؤالِ
وبُمدن الصعيد ما زال يرقى بدرُ تشريفهِ بلطف انتقالِ
نسألُ الله عصمةً ونجاحًا وبقاءً لهُ وحسنَ مآلِ
وثنائي عليهِ اوّل فرضٍ والوفا بالثناء فرضُ عالِ

ومن اقوالهِ يعاتب دهرهُ:

إلامَ تصوّبُ الاوهامُ غيًّا وتنشرُ ما طواهُ الرشدُ طيًّا
وفيمَ تقودُنا الأطماعُ طوعًا الى ما يُغضب الحرَّ الابيَّا
وحتّامَ التشوّقُ للمعالي وما هزَّ الشجاعُ السمهريَّا
أبعد الحقّ تنتظر الاماني ويُفرض ميّت الآمالِ حيًّا
اذا كنَّا مع الاحياء موتى فهيَّا نلحقُ الاموات هيَّا
شربتُ من الأسى عَلَلًا ونهلًا فزدتُ صدًى وما ألفيتُ ريًّا
وكم جبتُ المهامهَ كي ألاقي بمُنتجعي جوادًا او تقيًّا
فذاك اراهُ محتالًا فخورًا وهذا قصدهُ يدعى وليًّا
كأنَّ ذوي التُّقى ماتوا جميعًا وان الله لم يخلق سخيًّا
وكم طفتُ البسيطةَ لاختيارٍ فلم ارَ في الورى خلًّا وفيًّا
فمهلًا عاذلي عذري والّا فقلْ ما شئتَ واهجرني مليًّا
ألم ترَ ان للدهر اجتراءً على من ظنَّهُ فطنًا ذكيًّا
يجرّعهُ على مضضٍ كؤوسًا ويكتبهُ بلا سببٍ شقيًّا
وربّ جهالةٍ انشتْ لمرءٍ وعلمٍ اورث الذلَّ الرديَّا
وكم من ماجدٍ لاقى خطوبًا ومن شكوى الزمان غدا بريًّا
فلا تعجب وُقيت السوءَ وانظرْ تجدْ ربَّ البلاغة عييًّا
ومَنْ في الناس ليس لهُ خلاقٌ يقابَلُ بالمهابة اذ يحيَّا
فكنْ رجلًا لهُ في الارض رجلٌ وهامةُ عزمهِ فوقَ الثريَّا
فاني لستُ مبتغيًا حياةً تُبدِّل صُبحَ أفكاري عشيًّا
ولا ارضى مسالمةً بضيمٍ أيرضى الضيمَ من يُدعى عربيًّا
سأركبُ ضامرًا واهزُّ رمحًا واغمد في الرؤوس المشرفيًّا
واخترقُ الصفوف ولا أبالي اذا مدَّ الحِمام يدًا اليًّا

ولابي النصر رحلتان الى القسطنطينيَّة كانت الاولى في أيام السلطان عبد الحميد

موفدًا من محمّد عليّ الكبير وانشد حينئذٍ شيخ الاسلام قولهُ يمدح القسطنطينيّة:

وكنّا نرى مصر السعيدة جنّةً ... وغيرُها دون البلاد هي العليا
فلمّا رأت دارَ الخلافة عيننا ... علمنا يقينًا انّما هي الدنيا

وكانت رحلته الثانية مع الخديوي اسماعيل باشا وصادف دخولهما الاستانة يوم جلوس السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٩ (١٨٧٢) فقال ابو النصر يمدح الحضرة السلطانيّة بقصيدة مطلعها:

تبسّمتِ الازهارُ عن لؤلؤ القطرِ ... ففاح شذاها في الحدائق كالعطرِ

ومنها في مدح السلطان:

افادَ العلى جاهًا وعزًّا مؤبّدًا ... وألبسها من مجدهِ حلل الفخرِ
وابدى لأعلام التقدُّمِ مظهرًا ... بهِ الكُّ يعلو على دولِ الدهرِ
واحيا لاحياء العُلى كلَّ دارسٍ ... فاضحت قلاع الثغر باسمة الثغرِ
وجدّد في عهد قريبٍ بواخرًا ... بها قوّةُ الاسلام محكمةُ الامرِ
يروّنها تكسو الفخار مهابةً ... وتعلو بما حازت على الانجمِ الزُّهرِ
لهُ من رجال الحرب جيشٌ عرمرمٌ ... لهم همَمٌ في الفتك بالبيض والسمرِ
مدافعهم شمُّ الانوفِ على العدى ... تخرُّ لها شمُّ الجبالِ من الصخرِ
واسيافهم في السِّلمِ يعلو صيانُها ... متى جُرِّدت مالت الى القطر بالنحرِ

وختمها بهذا التاريخ:

وها انا في البُشرى اقولُ مؤرِّخًا ... جلوسُكَ عيدُ الدهر ام ليلة القدرِ

(محمود صفوت) ومن معاصري ابي النصر علي وطنيُّهُ محمودُ افندي صفوت بن مصطفى اغا الزيلع الشهير بالساعاتي ولد بالقاهرة سنة ١٢٤١ وبها توفي سنة وفاة ابي النصر ١٢٩٨ (١٨٨١) لزم الآداب واشتهر بنظمهِ ونثرهِ حتى عُدَّ فيها من المقدَّمين. وتوجّه الى الحجاز ودخل على امير مكّة فاكرم مثواهُ وابقاهُ عندهُ مدّةً ثم عاد الى وطنهِ وفيهِ قضى بقيّة حياتهِ. ولمحمود افندي صفوت ديوان شعر مخطوط في الكتبخانة الخديويّة لم يُنشر بالطبع. فمن ذلك قولهُ يفتخرُ:

ولع الزمانُ واهلهُ بعداوتي ... انَّ الكرام لها اللئامُ عداءُ
أيحطُّ قدري الحادثاتُ وهمّتي ... من دونها المرّيخُ والجوزاءُ
هيهات تغضُّ جانبي وعزائمي ... مثل البواتر دأبها الإمضاءُ
صبرًا على كيد الزمان فانّما ... يبدو الصباحُ وتنجلي الظلماءُ

ولهُ في رثاء عالم:

بكت عيون العلا وانحطَّت الرُّتَبُ ... ومزَّقت شملها من حزنها الكُتُبُ
ونكَّست رأسها الاقلامُ باكيةً ... على القراطيس لمَّا ناحت الخُطَبُ
وكيف لا وبهاء العلم كنت بها ... بدرًا تمامًا فحالت دونك الحجبُ
يا شمسَ فضلٍ فدتك الشهبُ قاطبةً ... اذ عنك لا الانجمُ تُغني ولا شهبُ
لمَّا اصابك لا قوسٌ ولا وترٌ ... سهم المنيَّة كاد الكون ينقلبُ
ما حيلةُ العبد والاقدارُ جاريةٌ ... العمرُ يوهَبُ والاقدار تنتهبُ

(صالح مجدي بك) وفي السنة ذاتها ١٢٩٨ (١٨٨١) توفي أديب آخر من نوابغ كتبة مصر السيّد صالح مجدي بك. ولد في ابي رجوان من مديريَّة الجيزة سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) وبعد ان تلقَّى مبادئ العلوم العربيَّة ودرس اللغة الفرنسويَّة الحقهُ استاذهُ رفاعة بك الطهطاوي بقلم الترجمة ثم عهد اليهِ تدريس اللغتين العربيَّة والفرنسويَّة في المدرسة الهندسيَّة الخديويَّة وعهدوا اليهِ تعريب كتب علميَّة للفرنج فعرَّب منها عددًا وافرًا في رسم الامكنة والطبقات الجيولوجيَّة والميكانيكيَّات والحساب والجبر والهندسة والفلكيَّات والفنون الحربيَّة كبناء الحصون ورمي القنابل الى ان تولى رئاسة الترجمة وجماعة اسماعيل باشا في المعيَّة السنيَّة وولاهُ مناصب أُخرى وكان آخر ما عُهد اليهِ قضاء القاهرة فلزمهُ الى وفاتهِ. وكان صالح بك يحسن الانشاء وفنون الكتابة وقد نشر مقالات عديدة اجتماعيَّة وسياسيَّة وادبيَّة في جرائد مصر كروضة المدارس والوقائع المصريَّة. واشتغل بتأليف مطول لتأريخ مصر مع علي باشا المبارك ولهُ ديوان شعر واسع طُبع في بولاق سنة ١٣١٢

ومن شعر السيد صالح بك مجدي قولهُ سنة ١٢٨٩ يهنّئ جناب الخديوي اسمعيل باشا عند رجوعهِ من الاستانة:

مع النصر وافى مَن عليهِ المعوَّلُ ... ومن هو في ايَّامهِ الغرُّ اوَّلُ
ومن هو للاوطان والملك والملا ... ملاذٌ وحصنٌ لا يُرامُ وموئلُ
ومن تملأ الدنيا مهابتهُ التي ... بها الاسدُ في آجامها تتجدَّلُ
ومن فاض من يمناهُ ماء سماحةٍ ... فأحيا بلادًا اهلها قد تموَّلوا
ومن شاد اركان المعالي بهمَّةٍ ... يقصِّرُ عن ادراكها متطوِّلُ
وقد جاءت البشرى بذاك فزُيّنت ... لمقدمهِ مصرٌ وفاز المؤمِّلُ
واثنت على دار الخلافة عندما ... رأتهُ بها يعلو وثانيهِ يسفلُ

فمش ما تشا في دولةٍ انت ربّها ... وجدك فيها من قدم مؤثّلُ
وقد قلتُ في يوم القدوم مؤرّخاً ... الى مصر اسمعيل بالبشر مقبلُ

وقال من قصيدة يهنّئهُ بها في اوّل العام:

بالبشر في مصرَ لاحت غرّةُ العام ... ترهو بنورِ مليكٍ للحمى حامِ
ترهو بنور مليكٍ غيثُ راحتهِ ... في الكون طول المدى بين الورى هامِ
هو الخديوُ الذي اوطانهُ نشرت ... للفضل في مصرهِ مطويَّ أعلامِ
والمدن مدّت باعها وال ... اوج العلى سارعت من غير احجامِ
فيا لهُ من حكيمٍ بالعلاج عفا ... ما كان في جسمها من فرط اسقامِ

ولهُ في حسين باشا ناظر المعارف والاوقاف والاشغال العموميَّة:

لجنابك العالي ثلاثُ مصالحٍ ... نُظمت بسلكٍ عسجدٍ ولُجينِ
وانشاء منك جيدُها برئاسةٍ ... اعمالُها منشورةُ العَلَمَينِ
وغدت بها بركاتُ اوقافٍ روت ... مصرًا وقد فاضت على الحرمَينِ
وبعزمك الاشغالُ زاد نماؤها ... وغدا زها في السهل والجبلَينِ
ولك المعارف غرّدت ابناؤها ... ببدائع الاجداد والابوَينِ
وبديعُ نظمٍ كامل في كاملٍ ... من مخلصٍ بالقلب والشفتَينِ
من مخلصٍ الك في الثناء بدولةٍ ... اضحيت فيها حائزَ الشرفَينِ

وختمها بهذا التاريخ:

والجد في علياك قال مؤرخاً ... زمنُ المعارف مُشرقٌ بحُسَينِ (١٢٨٩)

(ابو السعود افندي) ومن مشاهير ادباء مصر في ذلك الوقت ابو السعود افندي عبد الله المصري ولد سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨) في دهشور قرب الجيزة ودرس في المدرسة الكليَّة التي انشأها محمَّد علي باشا في القاهرة فبرع بين اقرانهِ . ثم ندبتهُ الحكومة الى نظارة اعمالها فكان في وقت الفراغ يواصل دروسهُ ويعكف على التأليف شعرًا ونثرًا . وحرَّر مدَّةً في جريدة وادي النيل وكاتب أُدباء زمانهِ . ونقل بعض كتب الفرنج الى العربيَّة . ومن تآليفهِ كتاب منحة اهل العصر بمنتقى تاريخ مصر نظم فيهِ مجمل حوادث تاريخ مصر للجبرتيّ ووضع تاريخًا لفرنسة الحقهُ بتاريخ ولاة مصر من اوَّل الاسلام دعاهُ بنظم اللآلي . وباشر بترجمة تاريخ عامّ مطوَّل وسمهُ بالدرس التامّ في التاريخ العامّ طُبع منهُ قسمٌ سنة ١٢٨٩ . وكان ابو السعود

شاعرًا مجيدًا له ديوان شعر طُبع في القاهرة اودعهُ كثيرًا من الشعر كالمديح والمراثي والفراقيّات . ونبغ في المنظومات المولَّدة كالمواليا والموشّحات . ولهُ ارجوزة نظم فيها سيرة محمَّد علي باشا كثيرة الفوائد بهيّة المقاصد تبلغ عشرة آلاف بيت . ولهُ غير ذلك ممَّا تفنَّن فيه وسبق آل عصره. توفي ابو السعود افندي في ربيع الأوَّل سنة ١٢٩٥ (١٨٧٨) . وقد رثاهُ احد شعراء وطنهِ بقصيدةٍ قال في مطلعها:

خُلِق الهبوطُ مع الصعودْ ومع القيام بدا القعودْ

الى ان قال:

لبس البكاء لسادةٍ ابدت لمرثيها الصدود
لكنَّهُ لمّا قضى ربُّ القريضِ ابو السعودْ
من لم يجُدْ بدمعهِ فكأنَّما نقض العهودْ
فهو الحريُّ بان تذو بَ عليهِ بالاسفِ الكبودْ
بحرٌ تدفَّق ماؤهُ لكنَّهُ عذبُ الورودْ
بقريحةٍ سالت على ارجائها سُبُلَ العهودْ
كم انتجت نُخَبًا لهُ فكأنَّها الامُّ الوَلودْ
ابدًا توقَّدُ بالذكا ء فليس يعروها خمودْ
ثبتت معاليها الثبيتة فيهِ وهو من الاسودْ
لا غروَ ان صعدَ السما بين الملائكة السجودْ
فبانتْ نعشٍ قد حملنَ سريرهُ لمن الشهودْ

(الحاج حسين بَيْهم) وفي آخر هذه الحقبة في صفر من سنة ١٢٩٨ (٢٤ ك الثاني ١٨٨١) فقدت الآداب احد اركانها في بيروت وهو الحاج حسين ابن السيد عمر بَيْهم كان والدهُ عمر من اعيان المدينة وادبائها رثاهُ الشيخ ناصيف اليازجي سنة وفاتهِ ١٢٧٦ (١٨٥٩) بقصيدة مطلعها:

زُرْ تربةً في الحمى يا ايُّها المطرُ وقُلْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عُمَرُ

ومنها:

في شخصهِ الدين والدنيا قد اجتمعا وذاك يندرُ ان تحظى بهِ البشرُ

ولد حُسين ابنهُ سنة ١٢٤٩ (١٨٣٣) ونشأ حريصًا على تحصيل مسائل العلم وفنون الادب فاخذ عن علماء ملّتهِ كالشيخ محمَّد الحوت والشيخ عبد الله خالد . وبعد ان تعاطى التجارة زمنًا يسيرًا انقطع الى العلم ونال بهِ شهرةً ثم نظم الشعر فصارت لهُ

به ملكة راسخة بحيث كان يقوله ارتجالًا في المحافل ويخرجه على صور مبتكرة تطرب له الاسماع . وقد ولّته الحكومة عدّة مناصب كنظارة الخارجيّة ورئاسة الاحكام العدليّة ثم أعيدت اليه الخارجيّة فقال في ذلك :

انَّ الفؤاد له في الملك معرفةٌ فالخارجيّةُ لم تترك نظارتَهُ
لذاك سلطاننا المنصور ردَّ له مع حسن انظاره ارّخ بضاعتَهُ

ولمّا وُضع القانون الاساسيّ وفُتح للمرّة الاولى مجلس النوّاب انتخبهُ مواطنوهُ ليمثّلهم فيهِ فحضر في الاستانة جلساتهِ ثم عاد الى وطنهِ واعتزل الأموريّات وانقطع الى الآداب . وكان حاضر الجواب ثاقب الرأي كريم الاخلاق عالي الهمّة محبوبًا عند الجميع . وكان احد اعضاء جمعيّة العلوم السوريّة المُنشأة في بيروت ولمّا توفي رئيسها الاوّل الامير محمّد ارسلان عهدوا اليهِ رئاستها . وكان للحاج حسين نظمٌ رشيق مطبوع قد بقي منهُ القليل ومن آثارهِ رواية ادبيّة وطنيّة مُثّلت مرارًا وقرّظها الادباء . ومن شعرهِ قولهُ في تاريخ جلوس السلطان عبد العزيز سنة ١٢٧٧ :

خلافة الاسلام قد اصبحت تزهو افتخارًا بالمليك العزيز
وملّة الايمان ارّختها طابت بشاهنشاه عبد العزيز

وقال مؤرّخًا انشاء التلغراف في بيروت :

لله درُّ السلكِ قد ادهشت عقولنا لمّا على الجوّ ساق
فأعجب الكون بتاريخهِ شبيهُ برقٍ او شبيه البُراق (١٢٧٧)

وقال مشطّرًا :

اذا النائبةُ لاحظتْ عيونُها وحياكها من فضائح الزمانْ
نادِك طائرٌ تيمها وسمودها ثمَّ فالخاوف كلهنَّ امانْ
واصطدْ بها العنقاء فهي حبالةٌ واملكْ بها النبراء فهي سنانْ
واصعدْ بها العلياء فهي معارجٌ واقتدْ بها الجوزاء فهي عنانْ

وقال يهنّئ حضرة كامل باشا بمستشاريّة الداخليّة سنة ١٢٩٦ :

حبّذا أعوز المالكَ اصلا حٌ وسُدّت عن وارديهِ المناهلْ
وفّق الله للوظائف قومًا ملكوا من ذرى الكمال المنازلْ
فتفاءلْ بالخيرِ صاحِ وأرّخْ مستشارًا اسمى محمّدٌ كاملْ

وممّا رُثي بهِ الحاج حسين افندي بيهم قول ابي الحسن الكستيّ :

فراقُكَ صعبٌ يا حسينَ احتمالهُ وبعدك رَكْبُ الانس شالت رحالهُ
رحلتَ إلى دار البقاء مكرَّمًا وشاقكَ مولى للنعيم مآلهُ
ولكن تركت القوم تبكي عيونهم عليك بدمعٍ كالسيولِ انهمالهُ
وليس لنا من بعد فقدك حليةٌ سوى الحزنِ او صبرٍ يعزُّ منالهُ
حويتَ خصالًا جلّ في الناس قدرُها وما كلّ انسانٍ تجلُّ خصالهُ
عفافٌ ومعروفٌ وعلمٌ ورقّةٌ وفضلٌ ومجدٌ قلَّ فينا مثالهُ

ومن جيّد شعرهِ قولهُ يعزّي صديقًا بفقد مالهِ :

لقد غمّنا والله والصحبَ كلّهم مصابٌ دهاكم بالقضا حكم قادرِ
كأنّ شرارًا شبَّ طار لارضنا فاحرق احشاء الورى بالتطايُرِ
ولكنّنا قلنا مقالةَ عاقلٍ يسلّم للباري بكل المظاهرِ
اذا سلمتْ هامُ الرجالِ من الردى فما المالُ الّا مثل قصّ الاظافرِ
فكن مثل ظنّ الناس فيك مقابلًا لذا الخطب بالصبر الجميل المبادرِ
ولا تأسفن اذ ضاع مالٌ ومقتنى فربّكَ يا ذا الحزم اعظمُ جابرِ
وانَّ حياة المرْ رأسُ لمالهِ سلامتهُ تعلو جميع الخسائرِ

(محمّد أكنسوس) وممّن وُزنت بهِ الآداب في هـذا الوقت في بلاد المغرب الاديب الشاعر ابو عبد الله محمد بن احمد اكنسوس المراكشي توفي في بلدهِ مراكش سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧) وقد عُرف المذكور بسعة معارفه لاسيا التاريخيّة والادبيّة ولهُ التاريخ المسمّى كتاب الجيش وقصائد عديدة في مشاهير بلادهِ من ذلك قولهُ يرثي سلطان مراكش المولى عبد الرحمن المتوفى سنة ١٢٧٦ (١٨٥٩) :

هذي الحياةُ شبيهةُ الاحلامِ ما الناسُ ان حقّقتَ غيرُ نيامِ

ومنها :

لو كان ينجو من رداها مالكٌ في كثرةِ الانصار والخدّامِ
لنجا امير المؤمنين ومن غدا اعلى ملوك الارض نجل هشامِ
خير السلاطين الذين تقدّموا في الغرب او في الشرق او في الشامِ
يا مالكًا كانت لنا ايّامهُ ظلًّا ظليلًا دائمَ الانعامِ
لا ضَيْرَ انك قد رحلتَ مبشّرًا دار الهناء وجنّة الاكرامِ
فلك الرضى فانعم بما أعطيتهُ ولك الهناء بنيل كل مرامِ

وقال يصف خروج السلطان المولى حسن على اعداء دولتهِ سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦) :

صفتْ عليهم بالبأس ترجي كتائب كالسحابِ اذا تلوحُ

فالقيتَ الجيرانَ على ذرامٍ بجيشٍ كلُّهم بطلٌ مشيحُ
فجاء العدو منك وهم ثلاثٌ اسيرٌ او كسيرٌ او ذبيحُ
وقد قُسمتْ بلادهمُ بعدلٍ ودورهمُ كما قُسم الوطيحُ
فلا تعلمْ بان الجرحَ يُكوى طريًّا بالمحاور او يقيحُ
ابا زيدٍ اذا تُبقي عليهم بصفحٍ رُبّما ندم الصفوحُ

ولهُ يصف بستانًا للوزير ابي عبد الله محمّد ابن ادريس :

يا منزلًا قد خصّصتْهُ سعادةٌ واستبدلتْهُ انسًا من أبؤسِ
اصبحتَ مأوى للوزير محمّدٍ نجل الادارسة الكرام الشُّوسِ
انسانُ عين الكون من لبست بهِ رُتب العلى ابهى واسنى ملبسِ
يا ايُّها البحر الذي من فيضهِ كلَّ الاماني والتقى للمقتبسِ
يهنيك ذا القصرُ الذي انشأتهُ بالسعد في عام انشراح الانفسِ
لا زلتَ تشرق من مطالع سعده كالبدر يظهر من خلال الحندسِ
والدهر يخدم جانبيك ويجتني بجلالك العالي الاعزّ الاقدسِ (له بقيّة)

الالفاظ السحريّة

نظر للأب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٢ المساواة

قرّبنا من شفتيك كأس الحريّة فذقت حلوها ومُرّهـا وعرفت ان خمارها ربّما مُزجت بخمرها والعاقل من تتبّع خيرها وتجنّب شرّها . فدعنا الآن نمحص لفظة ثانية بنار الانتقاد لم نعهدهـا سابقًا في افواه الشرقيين فدارت اليوم على ألسنة الناس فكادوا يثملون من طيب عبيرها . تلك كلمة « المساواة » يردفونها بلفظة الحريّة ويبنون عليها آمال سعادتهم الارضيّة

فما قولنا بالمساواة ؟

لا مرية انّ البشر من حيث طبيعتهم متساوون يكوّنهم الله اجنّةً ثم يخرجهم من قبور احشاء أمهاتهم بالعري والضعف وينشأون بين الاوجاع الى ان يبلغوا سنّ الحداثة ثم الشباب ثم الكهولة ثم تأخذ قواهم بالانحطاط وتحدق بهم بلايا الشيخوخة

ثم الهرم حتى يبيدهم الموت الى التراب الذي منهُ صوَّرهم الخالق ٠ تلك المساواة البشريّة لا يختلف فيها السيّد وعبدهُ والملك ومملوكهُ ٠ سأل الاسكندر ناسكاً رآهُ مكبًّا على قبرين مفتوحين وجمجمتين يابستين ماذا يصنع امام تلك الرمم ٠ فاجابهُ الناسك: افحص هذه العظام لعلّي اعرف ما امتاز بهِ السيّد عن العبد والسلطان عن المملوك فلم اجد بينهما فرقًا ٠ فهذه المساواة الاولى لكل امرء ان يفتخر بها ان شاء فلا يمانعهُ احد ولا يعارضهُ معارض٠ قال عليّ بن ابي طالب:

الناس من جهة التمثال اكفاءُ ابوهمُ آدمٌ والامُّ حوَّاءُ
فان يكن لهمُ من اصلهم شرفٌ يفاخرون بهِ فالطين والماءُ

ولنا فوق هذه المساواة مساواة أخرى تلحق بمساواة الطبيعة وتكملها وهي مساواة كل البشر في اسباب الحياة الجوهريّة. لان الله اذ خلق الانسان وجعلهُ احد اعضاء الهيئة الاجتماعيّة اراد لهُ ما تقوم بهِ حياتهُ ولا غنى للانسان عنها من الهواء والنور وبلغة الطعام اليومي والكسوة الضروريّة وفي ذلك يتساوى كل بني آدم ولا يحقّ لأحد ان يحرم اخاهُ من هذه الضروريّات التي بها قوام الحياة

ويتساوى ايضًا كل البشر بازاء الشريعة سواءٌ كانت الهيّة او بشريّة ٠ فانّ الشريعة التي تحابي الوجوه وترجّح الغنيّ على الفقير وتنتصر للشريف على المشروف وتهضم حقوق البعض لتغلّب حقوق البعض الآخر ليست بشريعة بل هي جورٌ وعدوان٠ فحاشا الله بشريعتهِ ان يقضي بميزانين ويجور في حكمهِ ذرّةً واحدة ٠ امّا الشرائع البشريّة فان حادت عن القسط والعدل بطل فعلها وعدمُها خيرٌ من وجودها٠ فالمساواة من هذا القبيل لازمة لازبة ويحقّ لكل انسان ان يطالب بها ويدافع عنها

كلُّ هذه وجوه المساوات مبنيّة على حقوق الطبيعة وسُنن العدل اذا هضمها الانسان أثِم وشوَّش النظام الذي وضعهُ الخالق في الهيئة الاجتماعية على انَّ المجتمع البشريّ ليبلغ غايتهُ وهي عمران الشعوب وسعادة الافراد يحتاج الى المساواة المدنية

فالمساواة المدنية تعتبر كلّ افراد الدولة متساوين في الفرائض والواجبات والحقوق مع قطع النظر عن اجناسهم واحسابهم واديانهم فلا تعتبر الّا نسبتهم الى خدمة العموم فتخوّلهم الانعامات نفسها والامتيازات عينها على مقتضى اهليّتهم وعلى حسب

ما يُجدون العموم نفعاً بمعاملاتهم . فسواء كان الانسان غنياً او فقيراً شريفاً او مشروفاً تابعاً لدين دون آخر مع مراعاتهِ لقوانين البلاد وقيامهِ بكل واجباتهِ الشرعيَّة فالشريعة تساوي بين الجميع ولا تفضّل الواحد على الآخر . وانَّما العدل يقتضي انَّ الذي يخوَّل حقوقاً ممتازةً يُطالب ايضاً بفرائض مناسبة لتلك الحقوق . ألا ترى مثلاً في بلاد الانكليز انَّ اعيان الدولة مع ما ينالون من الحقوق والامتيازات يقومون ايضاً باعباء المملكة ويلتزمون أداء ضرائب ومكوس لا تترتَّب على غيرهم

ويُلحق بهذه ابواب المساويات مساواة الفضل التي علَّمها الدين المسيحيّ ونشر اعلامها في كلّ انحاء المعمور . وذلك انَّ السيد المسيح رأى المظالم التي عمَّت الأمم وقلبت ظهراً لبطن طبقات الناس حتى انَّ الاستبداد والكبرياء بلغا بقسم من البشر ان يعتبر القسم الآخر كعبيد وخدم ليس لهم من الحقوق شيء سوى أن يكدُّوا لمنفعة غيرهم ويضحُّوا نفوسهم لمطامعهم . فاراد لذكرهِ المجود ان يُعيد للانسان شرفهُ ويمحو من جبينهِ سمة الذلّ التي وسمهُ بها الظالمون وذلك بتعليمهِ للبشر التواضع والخضوع وقد باشر تعليمهُ بالعمل فانهُ اذ كان السيد والرب جعل نفسهُ كالعبد والخادم . قال لتلاميذه عزَّ وجلَّ (لوقا ٢٢ : ٢٧) : «مَن أكبر المتكئ او الذي يخدم أليس المتكئ فانا في وسطكم كالذي يخدم » . أجل انهُ أنزل نفسهُ منزلة الخدم حتى انهُ غسل ارجل رسلهِ وتواضع امامهم وهو الذي « اذ كان في صورة الله لم يكن يعتدُّ مساواتهُ لله اختلاساً اخذ صورة العبد ووضع نفسهُ حتى الموت وموت الصليب »

وقد حرَّض تلاميذهُ مراراً على مجانبة الترفُّع وطلب التذلُّل واذ سمعهم يوماً يتباحثون في أيهم يُحسب الاكبر بكَّتهم على ذلك قائلاً (متى ٢٠ : ٢٧) : « قد علمتم ان اراكنة الامم يسودنهم وعظماءهم يتسلطون عليهم واماً انتم فلا يكون فيكم هكذا ولكن من اراد ان يكون فيكم اوَّل فليكن لكم عبداً » فهذه التعاليم وغيرها مثلها غيَّرت وجه العالم الوثني المملوء جوراً وعسفاً فظهرت في النصرانية مبادئ المساواة الصحيحة التي ادهشت العالم ولا تزال تدهشهُ الى يومنا هذا فكم من الاشراف وارباب الثروة واهل الترف والعزّ كفروا بكلّ ملاذّ الدنيا فصاروا عبيداً لاخوتهم يتفانون في خدمتهم فيعالجون امراضهم ويرشدون جهالهم ويربُّون صغارهم ويُعنون بعجزتهم ولا يدعون عملاً شاقاً الَّا قاسوهُ في سبيل الله ومحبَّة اخوتهم

تلك المساواة الانجيلية التي جعلت الوفاً من البشر اشبه بملائكة الله لا يطلبون كالرسول (روم ٩: ٢) الّا ان يكونوا مبسلين من اجل اخوتهم

*

فصّلنا ما يُراد بالمساواة الصحيحة ومتى يجوز للمرء ان يطالب بها وشنّاها غير انّ بعض اهل الفتن واصحاب الشاغب لا يرضون بما تقدّم فيجعلون كُنه المساواة في نفي كل سلطة وكل تباين واختلاف بين طبقات البشر يزعمون ان لكلّ الناس حقًا واحدًا في المال والغنى والشرف والسلطة ليس بينهم رئيس ولا مرؤوس ولا شريف ولا مشروف حتى لو شاء احد الناس ان يطلب السلطة لنفسهِ او يمدّ يدهُ الى مقتنى قريبهِ لحقّ لهُ ذلك لأن المساواة الطبيعيّة على قولهم تسمح بذلك. هو المبدأ المجحف بكل سلطة الناقض لاركان كل دولة الرافع لأعلام كل ثورة وفتنة

قُلْ لي ناشدتك اذا ضربتَ الصفح عمّا سبق لنا من بيان وجوه المساواة الشرعية اين ترى للمساواة اثرًا. يولد المرء في كوخ الفقراء كما يولد في بلاط الملوك ينشأ في بلاد وافرة الخصب واسعة الثروة كما ينشأ في القفار والبراري ليس لهُ الّا ما لا يكاد يقوم بأودهِ. فاين المساواة بين هذه المواليد. واي انسان يستطيع ان يؤاخذ خالقهُ على فقرهِ ويقرّعهُ على تفضيل غيرهِ عليهِ؟

ثم يترعرع هذا الطفل الصغير وينمو يومًا فيومًا وهو تحت حكم والديهِ لا يرى بُدًا من اكرامهما وطاعتهما والامتثال لاوامرهما. فان اساء عاقبوهُ وان عقّ ادّبوهُ. فمن يزعم رعاك الله ان الوالدين يتعدّيان طورهما وانّ للولد حقوقًا متساوية فيستطيع ان يخلع نيرهما ويخلد الى العصيان بحقّ المساواة. افتنزع المساواة عن الوالد حقوقهُ او تُبطل عن الولد واجباتهِ لعلّة وجودهِ؟ وكذا قُلْ عن الرجل والمرأة في البيت أليس للرجل الرئاسة في بيتهِ والتقدّم على امرأتهِ فليس ثَمّ مساواة

وكما ترى عدم المساواة في العائلة تجدها كذلك في احوال المرء وصفاتهِ واخلاقهِ وسائر امورهِ. فيكون زيد عاقلًا وعمرو جاهلًا. يكون ذاك صحيح البنية وهذا سقيمًا ممنوًّا بالامراض. يُعرف ذاك بتوقّد عقلهِ وسعة فهمهِ وهذا بقلة إدراكهِ. الاوّل محظوظ ينجح بكل مساعيهِ والثاني سيّئ البخت لا يرى في ما يباشرهُ خيرًا. وُلد الاوّل من اسرة عريقة في الشرف خدم اصحابُها الدولة فترقّوا الى اعلى المناصب ومولد الثاني

من عائلة خاملة الذكر لا حسب لها ولا نسب. فاين يا رعاك الله المساواة في كل ذلك الّا ان يعتب المرءُ على خالقهِ ويدّعي لمامهُ بأنَّ لهُ حقوقاً بخسها الله فظلمهُ فيها. لكنهُ تعالى يجيبهُ على لسان رسولهِ (رو ٩: ٢٠): «بل من انت أيها الانسان الجاوب لله ألعلَّ الجبلة تقول لجابلها لِمَ صنعتني هكذا. أليس للخزّاف سلطان على الطين فيصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وإناءً آخر للهوان» . او يقول لهُ كما قال ربّ البيت للفعلة الذين تذمّروا عليهِ اذ أعطى اجرةً متساوية للذين لم يشتغلوا كشغلهم (متى ٢٠: ١٣—١٤): «يا صاح ما ظلمتك. ألم اكن على دينار شارطتك خذ ما لك وامضِ فاني اريد ان أعطي هذا الآخر مثلك أليس لي ان افعل بمالي ما اريد ام عينك شرّيرة لأني انا صالح» . فليس للمرء ان يُطالب ربَّهُ بحقوق اذ ان كلّ ما ينالهُ العبد هو من فضلهِ تعالى فينبغي لهُ ان يشكرهُ سواء اعطى كثيرًا ام قليلاً. كما قال الصيّاد:

سُبحان ربّي يُعطي ذا ويحرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل السمكة

او كما قال سندباد الحمّال:

فكم من سعيدٍ بلا شقوةٍ يُنعَّم في خير فيءٍ وظلّ
واصبحتُ في تعب زائدٍ وأمري عجيبٌ وقد زاد حملي
وكلّ الخلائق من نطفةٍ انا مثل هذا وهذا كمثلي
ولكنْ شتّان ما بيننا وشتّانَ ما بين خمرٍ وخلّ
ولست اقول عليك افتراء فانت حكيم حكمتَ بعدلِ

ثم ان الانسان بمجرَّد مولدهِ في زمن من الازمنة وبلد من البلاد يجد نفسهُ عضوًا من اعضاء جسم ادبيّ عظيم فيهِ الكبير والصغير والشريف والذليل والرأس والمرؤوس أفيستطيع هذا الانسان بحقّ المساواة ان يطمح ببصرهِ الى مقام من يفوقونهُ رتبةً ويتوسّل بكل الوسائل ليهبطهم عن منازلهم ويتولّى هو مناصبهم. فلو تغلّبت مثل هذه المطامع على شعب لتفاقمت فيهِ الشرور وانتشر الفساد وسادت الفوضى واضحت السكنى مع الوحوش افضل من مساكنة البشر.

فترى ان المساواة التامّة من الامور المستحيلة التي تنافي كل النظام الطبيعيّ والادبيّ. فان اعتبرت الطبيعة في كل اطوارها وجدت فيها من اختلاف الانواع وتعدُّد الاصناف وتوفُّر الاشكال ما يأخذ بمجامع الابصار ويذهل العقول النيّرة ويجتذب

القلوب الى صانعها العظيم · لا بل خذ ما شئتَ من افراد الجنس الواحد فترى بينها بعض الاختلاف ما يزيدك عجباً بكونها. أفرأيت ورقةً من اوراق الشجر شبيهة بغيرها شبهاً تماً ؟ هذه وجوه الوف وملايين من البشر وكلّها تختلف بعض الاختلاف امّا في اللون وامّا في تقاطيع الهيئة وامّا في الحجم. وليس هذا نقصاً بل كمالاً ينبئ بغنى الخالق الذي يخرج مخلوقاتهِ كيفما شاء. ولا يستحيل عليهِ امرٌ من الامور. ولما تأمل الحكما. هذه الاشكال التي لا يفي بها احصاء. في المخلوقات اتفقوا على ان يحدّدوا الجمال الطبيعي" نظام المتنوّعات » يريدون انّ الجمال لا يتمّ في كائنٍ ما الّا اذا جمع بين النظام واختلاف الاقسام · مثال ذلك الجسم البشري الذي جمع في تركيبهِ كل شروط الجمال. قال الرسول بولس في رسالتهِ الاولى الى اهل كورنتس (١٢—١٤—٢٥) يصف بنية الجسد وارتباط اقسامهِ ونظام اعضائهِ: «انّ الجسد ليس عضواً واحداً بل اعضاء كثيرة فان قالت الرجل لأني لستُ يداً لستُ من الجسد أفلذلك ليست من الجسد · لو كان الجسد كلّهُ عيناً اين كان السمع ولو كان كلّهُ سمعاً اين كان الشمّ · والحال انّ الله قد وضع الاعضاء كلّاً منها في الجسد كيف شاء. ولو كانت كلّها عضواً واحداً اين كان الجسد. والحال انّ الاعضاء كثيرة والجسد واحد فلا تستطيع العين ان تقول لليد لا حاجة لي اليكِ ولا الرأس للرجلين لا حاجة لي اليكما بل ما يُحسب الاضعف من اعضاء الجسد هو ما تكون الضرورة اليهِ اشدّ · وما نحسبهُ الاحقر من الجسم هو ما نشملهُ باعظم الكرامة وما يقبح منّا لهُ اعظم الاحترام· امّا ما يجمل منّا فلا يحتاج الى شيء. لكنّ الله مزج الجسد حتى يخصّ العضو الناقص بكرامة اعظم لئلّا يكون في الجسد شقاق بل يكون للاعضاء اهتمام واحد بعضها ببعض فاذا تألم عضوٌ تألم معهُ سائر الاعضاء. واذا أُكرم عضو فرح معهُ سائر الاعضاء »

فللهِ درّهُ من وصف يصحّ في الجسم الجمعيّة البشريّة الادبيّ اكثر منهُ بالابدان. وكما انّ الحياة لا تثبت في الجسم اذا غلب عليه الشقاق وابى كل عضو ان يقوم بوظيفتهِ الخاصّة فكذلك وبالاحرى الجسم الادبيّ فانهُ ينقض كل نظامهِ اذا سعت الاعضاء بطلب المساواة واراد الصغير ان يَحُلّ محلّ الكبير · فان الله تبارك وتعالى بنى الهيئة الاجتماعيّة على اختلاف اعضائها وأعطى كل واحد ما يستفيد منهُ لمنفعتهِ الخاصّة ولفائدة كل الجسم فترى هذا شديد البنية تامّ العافية الّا انهُ فقير بالمال لاصق بالدقعاء.

وذاك واسع الثروة كثير الجدوى لكنّهُ مفتقر الى عَمَلة يساعدونهُ في استثمار مقتنياته. هذا بطل صنديد ورجل بأس ومراس لكنّهُ قليل السياسة والتدبير وذاك عاقل حكيم لولا انهُ منهوك القوى مهزول الجسم. وكذا قُلْ عن كل احوال البشر في كافّة امورهم فليس بينهم واحد يستغني عن اخيه فلو تساوى البشر في امورهم كلها من صحّة ومال وقوّة وادراك لتضعضعت اركان الهيئة الاجتماعيَّة وعاش كل انسان منفردًا بنفسهِ واضحت عيشتهُ كعيشة الحيوان او ادنى منها لأن البهائم نفسها تتعاضد وتتساعد لادراك غايتها وردّ عدوّها عنها (١

فما قولك بعد هذا بالذين ينادون بالمساواة ؟ ألا ترى انهم يسعون في طلب المحال. فانهُ من المحال ان تجعل المساواة في الجمعيّة الاهليّة كما سبق. من المحال ان تُتّخذ المساواة في العيشة الاجتماعيّة اذ يختلف الناس في اهوائهم وصفاتهم واعمالهم وتربيتهم وانسابهم. فهَبْ ان ملكاً من الملوك يجمع يوماً كل رعاياهُ ويعطي كل فرد منهم بالمساواة قسماً من املاك الدولة ومقتنياتها أتدوم هذه المساواة يوماً واحداً ألا ترى انَّ مواصلة المعاملات ومزاولة الاشغال بعد زمن قليل تُزيل تلك المساواة فيربح هذا على ذاك اماً بفطنتهِ واماً بصفقاتهِ الرابحة واما بجدّهِ وعنايتهِ فيفقد هذا ما حظِيَ من المال بكسلهِ وسوء تصرّفهِ ويُصاب ذاك بجسمهِ او بعقلهِ فيخسر كل مقتناه. وخلاصة القول انهُ لا يمرُّ على هذا التساوي أيام قلائل حتى تعود الثروة كما كانت سابقاً متوفّرة في ايدي البعض زهيدة في ايدي البعض الآخر

ومن المحال ان يدعي البعض بالمساواة في الحقوق دون مراعاة طبقات الناس واهليّتهم واستعدادهم لها. أيُعامل الامير كعاملة الأمور او يقام العالم النحرير مقام الجاهل المركّب. أليس للأُسَر الشريفة التي خدمت الوطن مدّة اجيال متوالية خدماً عديدة انعاماتٌ وامتيازات لا تُعطى للعيال الحديثة التاريخ. او يُنزّل الامام والكاهن والاسقف منزلة السوقة والعامة. ألا يمتاز القائد الظافر باعداءِ وطنهِ من الجندي الجبان. فلو زعم احد انَّ كلّ هؤلاء متساوون بالحقوق لكذب وشهد على كذبهِ كلُّ من لم يختلّ بعقلهِ

١) راجع مقالة حضرة المنسينيور يوسف المنّم في تباين الحظوظ بين الناس فانها من ابدع ما كتب في هذا الموضوع (المشرق ٥ : ٧٦٢)

ومن المحال ان تكون المساواة في السياسة . فانَّ سياسة البلاد على ايّ صورة برزت لا يمكنها ان تكون متساوية بين كل اهل الدولة . فان كان نظام الدولة ملكيًّا مطلقًا فالامر واضح . وان كان ملكيًّا دستوريًّا او كان جمهوريًّا فقط فالمساواة لا تصلح الّا على شروط وذلك باختيار اعضاء لمجلس المبعوثين . أما هذا الاختيار فلا بُدَّ ايضًا من تقييدهِ بقواعد تجعلهُ مفيدًا لصوالح الجمهور نافعًا لنجاح الوطن . ويتمّ الامر اذا جُعلت لبعض المختارين امتيازات فوق سواهم على حسب ثروتهم او املاكهم او مراتبهم وعلى قدر ما يدفعون للحكومة من الضرائب والمال الاميريّ فانَّ مثل هؤلاء احرى بالانتخاب واحرص على اختيار مبعوثين جديرين بحفظ النظام وإصلاح البلاد من الصعاليك الذين يبيعون اصواتهم لكل مشترٍ ولا يهمّهم أتجري الاحوال منتظمةً ام لا . وعلى كلّ حال لا يخفى على كل ذي عقل مصيب انَّ صوت رجل همام ذي عقل راجح وعلم واسع وفضل سامٍ يفضل على صوت رجل خسيس جاهل خالٍ من كل فضل ومكرمة وهذا ما لحظتهُ بعض الدول في انتخابات مبعوثيها كإنكلترة مثلًا التي تخوّل بعض المختارين امتيازات حسب مقامهم او اشغالهم النافعة للوطن

هذا نظر اجمالي في المساواة اتبيّن للقرَّاء ما وراء هذه اللفظة من المعاني الملتبسة فان حصرتها ضمن دائرة العقل والحكمة صحّ معناها أما اذا اطلقتَ عليها من المعاني ما يردُّهُ الذوق السليم والحكم الصائب وتنفيهِ الطبيعة المستقيمة اصبحتْ وبالًا وكان شرُّها عظيمًا . والعاقل من رضي بما قسم الله لهُ من الخير وسعى قدر استطاعتهِ في استثمار الوزنة التي تكرَّم بها عليهِ الخالق فان ضاعفها بالمتاجرة الشرعية والّا انتظر بصبر يوم المساواة العظيم الذي فيهِ يجازي الرب كلًّا على اعمالهِ فيطلب كثيرًا ممَّن أُعطي الكثير وقليلًا ممَّن أُعطي القليل . فطوبى للعبد الذي يجدهُ سيّدهُ ساهرًا على مالهِ امينًا في خدمته فيقيمهُ على جميع ما هو لهُ (لوقا ١٢ : ٤٤)

مطبوعات شرقية جديدة

ΧΡΥCOCΤΟΜΙΚΑ: Studi e Ricerche intorno A S. Giovanni Crisostomo a cura del comitato per il XV° Centenario della sua morte 407-1907. fasc. 1, gr. in-8, pp. 242 *Pustet*, 1908.

ابحاث في اعمال القديس يوحنا فم الذهب بنسبة يوبيلهِ المئوي

انّ الاعياد الحافلة التي أُقيمت في رومية العظمى بنسبة المئة الخامسة عشرة لوفاة الذهبي الفم لم تنحصر في مظاهرات جليلة أُتحدت فيها الكنيستان الرومانية والشرقية بل كانت ايضاً مبعثاً جديداً للهمم فاخذ ارباب البحث يدرسون حياة ذلك الرجل العظيم الذي ارسل على الكنيسة بزمانهِ ضياء ساطعة لم تزل اشعّتها تنتشر في كل انحاء المعمور الى يومنا هذا. فوجدوا كثيراً من اعمالهِ وتآليفهِ مدفونةً في زوايا النسيان ومن ثمّ عوّلوا على احيائها ومن جملة ما باشروا من ذلك مجموعٌ دعوهُ بالخريزوستوميات اي ابحاث منوطة بالقديس يوحنا فم الذهب طبعوها في امّ المدائن الكاثوليكية. وقد تلقّينا بغاية البهجة القسم الاوّل من هذا المشروع الجليل وهو مطبوع اجود طبع في مطبعة انتشار الايمان المقدس بحروف جميلة يونانية ولاتينية ومسكوبية وارمنيّة. اما الابحاث التي يتضمّنها هذا القسم فكلّها اثيرة خطيرة اوّلها مقالة في الدور الادبيّ الذي لعبهُ يوحنا فم الذهب في عهدهِ. ومنها بحث مبتكر في علاقات القديس يوحنا مع فيلسوف زمانهِ ليبانيوس الشهير. وممّا يستحقّ ذكراً خصوصياً ثلاثة ابحاث في اعمال يوحنا فم الذهب الباقية في المخطوطات العربيّة والمخطوطات الارمنيـة والمخطوطات المسكوبيّة. ولعلّنا نعود الى البحث الاوّل فنعرّبهُ في المشرق وهو لحضرة مكاتبنا الفاضل الخوري قسطنطين باشا. فيرى القرّاء ما في هـذا الاثر الجديد من الفوائد فنحثّ كلّ الشرقيين على درسهِ

ل. ش

LES FIANÇAILLES ET LE MARIAGE: Discipline actuelle. Décret « *Ne temere* » et récentes décisions du Saint-Siége, par le **P. L. Choupin s. j.**, *Paris, G. Beauchesne et* C^{ie}, 165 pp. in-16, 1908.

الخطبة والزواج وقوانين الكنيسة فيهما

انّ قداسة الحبر الاعظم بيوس العاشر اصدر في ٢ آب سنة ١٩٠٧ براءة ذات

شأن مطلعها بقولهِ (Ne temere) ومدارها على شروط عقد الخطبة والزواج عند الكاثوليك وقد تلافى في هذه البراءة عدَّة امور كانت تعرّض الدعاوي الزواجيّة لمشاكل معضلة ووضع قوانين جديدة تزيل هذه المعضلات فأمر انَّ الخطبة القانونية تجري على هذه الصورة بان يضع الخطيبان قرارًا على خطبتهما يمضيانهِ باسمهما بحضور خوري الرعيَّة او الرؤساء المرخَّصين او بحضور شاهدين على الاقلّ. فان نقص احد هذه الشروط عُدَّت الخطبة باطلةً خالية من كل فعل. اما الزواج فكان المجمع التريدنتينيّ وضع له بعض قوانين لثبات علانيتهِ لولاها كان يُحسب الزواج باطلًا غير شرعيّ. وكانت تلك القوانين لا تشمل غير البلاد التي أُعلنت فيها رسميًّا. والبراءة الجديدة قد وضعت اليوم سننًا عموميَّة تشمل كلّ البلاد والطوائف الكاثوليكيَّة (الَّا الشرقيَّة) وهي توضح عدَّة لامور مبهمة وشُبهات متعدّدة نشأت منذ عهد المجمع التريدنتينيّ الى يومنا الحاضر. وما برزت هذه البراءة حتى اسرع اللاهوتيون الى تفسيرها وبيان تقاريرها والبحث من كل احكامها. الَّا انَّ اوضح واضبط ما جاء في ذلك كتاب صغير الحجم أَلَّفهُ احد اساتذة اللاهوت الادبيّ الاب لوسيان شوبين اليسوعي استقرى فيهِ كل المسائل المنوطة بهذه البراءة فشرحها شرحًا مستوفيًا مبنيًّا على مبادئ الحقّ القانونيّ وفتاوى المجمع المقدَّس. فنحضّ كل من تهمُّهُ هذه الابحاث القانونيَّة من كهنة الشرق على مطالعة الكتاب ليعلموا ما قرَّرتهُ البراءة المستحدثة

الاب ب. بيرون

Dr LEOPOLD FONCK. S. J. – WISSENSCHAFTLICHES ARBEITEN. Beitraege zur Methodik der akademischen Studiums. *Innsbruck, F. Rauch*, 1908. XIX-340 pp. in-8, *Prix* 2, 25.

تنظيم الدروس العلمية في المدارس الكليَّة

في حواضر اوربة مدارس عليَّة وكليَّات يتردَّد اليها الشبان لاستماع الدروس التي يلقيها بعض الاساتذة على طريقة نظريَّة اكثر منها علمية. فاذا اكتفى الحضور بتلقّي تلك الدروس بقيت فائدتها قليلة منحصرة فلا بُدَّ للطالب ان يُلحق تعليم المعلّم بدرسهِ الخاصّ. وليس للطلبة ما يرشدهم الى تنظيم تلك الدروس فعمد احد اساتذة كليَّة انسبروك سابقًا والمدرسة الرومانية حالًا الاب لاوبلد فنك اليسوعي تزيل مدرستنا قبل

بضع سنوات الى وضع كتاب جليل الفائدة كثير العائدة جمع فيهِ كلّ ما يحتاج اليهِ طالب الكليّات من المعلومات للاستفادة من دروسهِ في تلك المدارس. والكتاب في ٢٨ فصلًا يتضمّن كلُّ فصلٍ قسمًا من المعلومات التي تختصّ بصنفٍ من العلوم كالآداب والآثار القديمة والتاريخ فيبحث عن مؤلّفيها ونُسَخها ومطبوعاتها وكيف يُنتفع منها. وفي هذا الكتاب ابحاث عن خزائن الكتب والمجلّات التي تساعد الطالب على تهذيب عقلهِ. وفيهِ كلام عن الاساليب والطرائق العلميـة لاحراز المعارف بوقت قريب ولامور عديدة توفّر على الطلبة وقتهم الثمين فيجدونها في هـذا الكتاب دون غيرهِ. وهو حريٌّ بأن يُدعى دليل الطلبة لاحراز المعارف الاب ي. ديلنستر

Notice sur les Manuscrits syriaques conservés dans les Bibliothèques : 1° du Patriarcat Chaldéen de Mossoul - 2° de l'Évêché Chaldéen de Mardin, par Mgr. ADDAI SCHER, 38 et 36 pp., *Paris, H. Champion*, 1908.

قائمة المخطوطات السريانية في مكتبتي موصل وماردين الكلدانيتين

معلوم لدى القرّاء كم يعتني الاوربيون في ضبط قوائم مكاتبهم لاسيا خزائن المخطوطات فانّهم يحكمونها ايَّ احكام فيصفون كلّ كتاب وصفًا مدقّقًا ليعرف الطالع ما يحتويهِ كلّ سفر ولا يفوتهُ شيء من التعليات المفيدة لاوصافهِ. وقد سرّنا انّ بعض الشرقيين يتّخذون هذه الطريقة عينها لوصف ما عندهم من الكنوز الادبية. ولا غرو ان السيد ادي صليبا ابراهيم رئيس اساقفة كركوك ممّن يستحقون ذكرًا خصوصيًّا وثناء طيّبًا في ذلك فانّ سيادتهُ كان سبق ووصف في المجلة الاسيويّة البارسية سنة ١٩٠٦ مخطوطات دير سيدة الزروع القريب من القوش (وعددها ١٥٣) ثم اردف ذلك في السنة التالية بوصف مخطوطات الدار الاسقفية في ديار بكر (في عدد ١٥٩) واليوم قد اتحفنا السيّد الوما اليهِ بكرّاسين آخرين يحتويان وصف مخطوطات المكتبة البطريركية الكلدانية في الموصل (وعددُها ١١١) ثم وصف مخطوطات المكتبة الاسقفية الكلدانية في ماردين (وعددها ١٠٤) وسيادة الكاتب يصف كلّ كتاب بتعريف اقيستهِ وعدد صفحاتهِ واسطرهِ وقدمهِ وتاريخ نسخهِ ثم يبيّن كل اوصافهِ وخواصّهِ. واذا كان الكتاب فريدًا في جنسهِ زاد في تعريفهِ الايضاحات اللازمة واشار الى

التآليف التي تكلّمت عنهُ . فيا حبذا لو حذا حذو سيادتهِ اصحابُ الهمم في كل طوائفنا الشرقيـة فيدرجون في المجلّات جداول مخطوطاتهم ويصفون وصفاً وافياً ما يرفونهُ من الاسفار المصونة في المقامات البطريركية والاسقفيـة وفي الاديرة وكذلك المكاتب الاسلامية اللاحقة بالمدارس والجوامع في الاستانة العليـة ودمشق وحلب وبغداد والموصل فانَّ تلك الكنوز لا تفيد غالباً الّا العثّ فلا يُعرف من امرها شيء. او اذا طُبعت قوائمها كانت تلك القوائم قليلة الجدوى اذ تقتصر غالباً على اسم الكتاب ومؤلّفهِ دون تعريف احوالهِ وخواصّهِ . فيا لله ما الفائدة من المكاتب التي يضنّ عليها اصحابها على المطالعين فتبقى محجورةً يرعاها السوس ل.ش

كتاب المنتخبات العربيَّة

لجامعَيهِ محمَّد حسن محمود وامين افندي عُمَر

(طُبع في مصر سنة ١٣٢٥ ص ٣٢٤)

راقتنا طريقة جامعَي هذه المنتخبات فانهما اختارا طرَفاً من نظم او نثر منة من كتبة العرب مباشرةً بعهد الجاهليَّة فاوائل الاسلام فزمن الخلافتين الامويَّة والعبَّاسيَّة حتى الازمنة المتأخرة يُختم الكتاب ببعض منظومات او فقرات للمنشئين المصريين لاسيما المصريين . وقد أُلحقت بأسم كل كاتب او شاعر رُوي عنهُ نُتفٌ من اخبارهِ في ثلاثة او اربعة اسطر مع ذكر سنة وفاتهِ ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد لارشاد الاحداث. فنشكر الاديبين اللذين قاما بهذا العمل ونتمنّى لكتابهما رواجاً في المدارس. على انَّ هـذا المجموع تزيد فوائدهُ اذا ضُبطت منتخباتهُ بالشكل الكامل او على الاقل بتشكيل المبهم منهُ . وكذلك تحتاج الفوائد التاريخيَّة المقدَّمـة على اسم كل كاتب الى مراجعة واصلاح فانَّ تاريخ وفيات اهل الجاهلية مثلًا ليس غالباً بصحيح . وكذلك في اخبار شعراء الاسلام ما يخالف الواقع فانَّ يحيي البرمكيّ مثلًا (ص ٧٦) لم يكن وزيرًا للمنصور . وقد تعجبنا مما جاء في ترجمة حسّان بن ثابت (ص ٥٢) انهُ «عاش ستين سنة في الاسلام» بعد ان جُعلت وفاتهُ سنة ٥٤ للهجرة فايّ القولين اصح ومزاعم أُخرى كهذه تحتاج الى تحقيق ل.ش

دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف

تأليف عيسى افندي اسكندر المعلوف

طُبع في المطبعة الشابّة سنة ١٩٠٧–١٩٠٨ (ص ٧٤٩)

نشكر الشكر الحميم مؤلف هذا الكتاب الذي أدنى من افواهنا قطوفاً جمعها من حديقة غنَّاء واسعة الارجاء غنيَّة بازهارها شهيَّة بإثمارها ألا وهي حديقة اسرة الفاضلة بني المعلوف الذين تتبَّع اصولهم وفروعهم وتعقَّب افرادهم وجموعهم حتى اخرج لهم تاريخاً ثابت الاركان بل بنى لهم صرحاً شاهق البنيان. وقد اخذنا العجب مما بلغت اليه يد المؤلف من المعلومات الرائقة لم يثبطهُ عن تحصيلها بُعد منالها فلم يدع طريقاً الّا سلكهُ ولا باباً الّا طرقهُ كما يُرى من الحواشي التي ذيَّل بها كتابهُ ومن جدول التآليف التي راجعها لتصنيف مؤلَّفهِ. وقد رأينا اسم مجلَّة المشرق مذكوراً بالثناء في اماكن عديدة فنشكر حضرة الكاتب على ثقتهِ بمنقولاتنا. وخلاصة القول انَّنا نعتبر هذا الكتاب من انفع وابدع التآليف الوطنية اذ تفيد مطالعتهُ ليس فقط اخبار بني المعلوف بل يُهتدى بهِ ايضاً الى آثار عديدة من تاريخ لبنان اجمالاً وحوران خصوصاً لانَّ جناب المؤلف يرقّي اصل الاسرة المعلوفية الى تلك البلاد فيفتتح كتابهُ بذكر تاريخها واقسامها وآثارها والشعوب التي توالت في ملكها. ولعلَّ البعض يجدون في هذه الفصول نوعاً من الاستطراد وضرباً من الفضول الّا انَّ ذلك مما يصدق فيهِ المثل السائر «زيادة الخير خير». وليس مقصودنا من ثنائنا على هذا التأليف الجليل أننا نوافق المؤلف في كل آرائهِ لاسيما ترقية اصل بني المعلوف الى ملوك غسَّان ونحن نعلم انَّ جنابهُ لم يروِ ذلك الّا كتقاليد خاصَّة تناقلها الابناء عن الاجداد لا يمكن اسنادها الى اثر كتابيّ يوثق بهِ. وكفى المؤلف فخراً انَّهُ تمكَّن من جمع شتات اخبار تلك العائلة التي كاد لا يُحصى عددها فروى ما روى عن كل افرادها منذ نيِّف وثلثمائة سنة جازاهُ الله خيرًا. ونحن نتمنَّى انَّ جنابهُ يواصل دروسهُ التاريخيَّة ويتحفنا قريباً ان شاء الله بما هو اوسع فائدة واعمّ نفعاً بما وعدنا بهِ من «الاخبار المرويَّة في أُسر لبنان وسوريَّة».

ل. ش

شهادات الكنيسة السريانية المارونية الصادعة بوجود جسد المخلص ودمهِ حقيقةً في سرّ الاوخارستية

بقلم الاخوين المونسنيور بطرس حبيقه والقس يوسف حبيقه الراهب اللبناني

طُبع في المطبعة اللبنانية في بعبدا سنة ١٩٠٨ (ص ١١٢)

بنسبة يوبيل قداسة الحبر الاعظم الكهنوتيّ وانعقاد المجمع القربانيّ في لندن رفع المؤلفان المذكوران هذا الاثر الى معالي الكرسيّ الرسولي ونيافة الكردينال فانوتللي . وهو كمجاميعهما السابقة يحتوي شهادات الكتب الطقسيَّة المثبتة بايمان الكنيسة السريانيّة في حقيقة سرّ القربان الالهيّ . وهذه الشهادات قد أثبتت بالسريانيّة ونقلت الى العربيّة وهي كثيرة تنيف على الخمسمائة وكفى بها تفنيدًا للهراطقة المحدثين الذين نكروا هذه الحقيقة الجوهريّة التي تصدع بثبوتها كلّ الآثار الدينية منذ اوائل النصرانية . وكان الاجدر بأثر كهذا ان يُتقن طبعهُ ويتّخذ لهُ اجود الاوراق. فيسؤنا انّا وجدناهُ على خلاف ذلك

ل. ش

مجالي الغرر لكتّاب القرن التاسع عشر

المجلد الاوّل من القسم الشعري جمعهُ الاديب يوسف افندي صفير

طُبع في المطبعة الشمانية في بعبدا سنة ١٩٠٦ (ص٣٤٨)

سبق جناب جامع هذا الكتاب فقدَّم عليهِ جزئين اودعهما منتخبات نثريَّة لكتبة العصر مرَّ لنا تقدمهما (الشرق ١ :٤٧٧ و٨ :١١٠٦) وها هوذا المجلد الاوَّل من القسم الشعري فيهِ نحو مائة قطعة من اقوال شعراء العصر في مواضيع مختلفة في كل فنون الشعر من وصف ومديح ورثاء وحماسة وبيان احوال وسنوح خواطر الى غير ذلك مما يتوق اليهِ القرَّاء لاسيما الشرقيين . ومن حسنات الكتاب عدَّة مواضيع عصريَّة ووقائع وطنيَّة يُسرُّ بها القرَّاء لاسيما الاحداث منهم كالقطار الحديدي ووصف لبنان والكهربائيَّة والبخار والسيكارة والنارجيلة وقلب الام ومناظرة السيف والبخار . وفي كثير من هذه المنتخبات نفسٌ شعريٌ يدلُّ على قريحة صادقة وشواعر لطيفة فنشكر

جناب الاديب الساعي بجمع هـذه الطرائف ونتمنّى لكتابهِ رواجاً ولولا شيء من الغزليّات كان الكتاب عنها في غنًى لحضضنا ارباب المدارس على اقتنائهِ ووضعهِ في ايدي طلبتهم ل·ش

مفتاح القراءة

لمؤلفهِ رشيد الشرتوني · طُبع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٩٠٩ (ص ٣٢)

هذا الكرّاس مما وضعهُ الاستاذ المرحوم رشيد الشرتوني مدّة قبل وفاتهِ فتأخر الى اليوم طبعهُ لتمام ما أُودعهُ من التصاوير · وهو عبارة عن ثلاثين صفحةً في ثمانية عشر درساً يصدَّر كل درس برسم تنشيطاً لخواطر الاحداث وفي الدرس قسمٌ للقراءة يليهِ قسمان آخران الكتابة ثم للحساب لانَّ الاختبار قد دلَّ المعلمين « على انَّ الصغير اذا زاول الخطَّ من اوَّل امرهِ تسهَّل عليهِ ادراك القراءة بفرصة اقرب فضلاً عن انَّ انتقالهُ من القراءة الى الحساب مما يروّح نفسهُ ويجدّد نشاطهُ » فنكتفي بهذه الاسطر دليلاً على فوائد الكتاب

مصباح الرُّشد في عجائب لُرد

تعريب الخوري بطرس مراد (طُبع في القاهرة سنة ١٩٠٨ ص١٢٣)

هذا الكتيب قد وضعهُ في الافرنسية الخوري برترين اثبت فيهِ ما جرى في مدينة لرد من التجلّيات العجيبة لمّا ظهرت العذراء الطاهرة للفتاة برندت كما فصّلنا ذلك سابقاً في المشرق (ص ٣٢١) وقد عرَّبهُ حضرة الخوري بطرس مراد المارونيّ تذكاراً للاعياد اليوبيلية التي أُقيمت في هـذا العام الخمسينيّ لتلك الحوادث الغريبة التي لا يستطيع ان يتأمّلها العاقل دون ان يقرَّ بسلطان الدين فيصرخ « هذه اصبع الله » ل·ش

Calendrier d'al-Machriq

تقويم المشرق لسنة ١٩٠٩

هذه السنة العاشرة منذ صدور تقويم المشرق فلا نطيل الكلام في وصفهِ والكل يعلمون ما امتاز بهِ من زاهي الالوان وحسن النقوش ولطيف الحجم والفوائد التي يتضمّنها · ومن خواصّهِ في هذا العام الجديد انهُ يمثّل لبنان واشجارهُ الباسقة يعلوها

تمثال السيدة المقام حديثًا قرب حريصا مشرفًا على ساحل جونية. وفي مقدّمة كل شهر افادات عمومية عن احوالهِ. وفي ذيل كل يوم من أيام السنة حوادث تاريخية تشمل اخبار كل الامم القديمة مباشرةً من تكوين العالم الى عهد المسيح. ألا الآحاد والاعياد فانَّ في ذيل اوراقها آيات منتزلة من فصول الانجيل المختصة بأيامها

هدايا

أُرسلت الى ادارة المشرق

١ كتاب جامع الحجج الراهنة. تأليف السيّد اقليميس يوسف داود رئيس اساقفة دمشق على السريان الكاثوليك (ص ٥٤٤)

٢ تعريب رواية اتالا للفيكونت شاتوبريان بقلم فرح انطون صاحب الجامعة. (نيويرك ١٩٠٨ ص ٤٨)

٣ حدائق الظاهر. مجلة تاريخية ادبية اجتماعية لصاحبيها احمد زكي ابو شادي ومحمود حبّاس. المجلد الاوّل. العدد الاول. يوم الحساب. (مطبعة الظاهر بالقاهرة ص ٢٢٤)

٤ كتاب مؤنس الجلّاس بمفاخر العبّاس. وهي قصائد نظمها الارشمندريت ايليّا ديب المنتخب لطرابلس صور وصيدا فرفعها الى معالي الحضرة الخديويّة. (طُبعت في مصر ١٩٠٨ ص ١٦)

٥ برنامج المكتبة الاهلية: لصاحبيها احمد حسن طباره ومحمد جمال (ص ٩٦)

٦ يوم في كرم. بقلم شكري الخوري. (طُبعت في سان باولو ١٩٠٨ ص ٢٢)

٧ مقالة انكليزيّة في الوحدة الاسلامية Pan-Islamism, by Shaikh Mushir Hosain Kidwai, *London, Luzac and C°*, 1908, pp. 76.

٨ مبادئ الهجاء الفرنسويّة للاديب ايوب صائغ Nouvel Abecédaire français, par Ayoub J. Saïegh, *Zahlé*, 1908, pp. 88.

شذرات

زيادة اوجاع المرضى في الليل وسبب ذلك ارسل الينا من حلب الدكتور النطاسي نابوليون ماريني الاسطر التالية فنثبتها لافادة القرّاء: معلوم ان اغلب المرضى ان لم نقل جميعهم يشعرون عند دخول الليل بزيادة في اوجاعهم وتفاقم في آلامهم فتراهم يتململون ويهيجون وتتضاعف قوّة الحمّى ويعصي عليهم النوم كأنَّ نوبة المرض تتجدّد في تلك الاثناء. فما هو يا تُرى سبب هذه اللوائح المزعجة؟ نقول انَّ سببين خصوصًا يخفّفان اوجاع المريض في النهار. الأوّل: الأدوية التي يصفها الاطبّاء.

غالباً في النهار دون الليل اما لزعمهم أنها انجع للمريض واما لاسباب اخرى ثانوية كالعادة وسهولة استعمالها في النهار. والثاني الاشعة الشمسيَّة التي خصَّها الخالق بفعل مسكّن وملين. وقد اثبت ذلك كثير من الاطباء بالاختبار لاسيما الدكتور روتشيش (Dr Rothschich) الذي جرَّب الاشعَّة الزرقاء لاخماد الحكَّة الرحميَّة ولازالة الصُّداع فجاءت امتحاناتهُ مثبتة للامر باجلى بيان. كذلك قد ثبت للعلماء انَّ للأشعَّة الزرقاء قوةً في قتل الجراثيم المرضيَّة فانَّ الدكتور فِنسن (Dr Finsen) تمكَّن من معالجة السرطان بعرضهِ على تلك الاشعة. ومما لحظ العلماء ان جراثيم الهيضة والطاعون اذا وقعت عليها اشعَّة الشمس أبطلت عُدواها وكذا الاوجاع الزهريَّة فان الاشعة الزرقاء تخمدها كما تسكّن اوجاع السرطان وتخِفّ في النهار حُمَّى الامراض التدرنيَّة التي تقوى في ساعات الليل. ومن ملاحظاتهم ان بثور الجدري المعرضة لاشعة الشمس تيبس بزمن قليل. وقد دخلت المعالجة بنور الشمس في طور التقدم والانتشار بهمَّة بعض الاطباء العصريين الذين نالوا بواسطتها من النتائج ما فاق آمالهم. وان سألت كيف تعمل اشعة الشمس في الجسم البشري فتشفي ما يطرأ على آليَّاتهِ من الجروح. اجبنا ان اشعَّة الشمس تنفذ في جلد الانسان بل تلج عظامه نفسها. ومن هذه الاشعة ما تمدُّهُ وشيجة الجلد الشبكة ونسيجة التلاحم. فبقي للمرضى في الليل ان يواظبوا على استعمال الادوية التي في فيه اشعة الشمس لا تكفُّ عن عملها فتلطّف اوجاعهم الليليَّة نوعاً. وقد سبق الدكتور هوكلار (Dr Huclard) الى استعمال سايسيلات الصودا ليس في النهار فقط بل في الليل ايضاً لتخفيف وطأة الروماتسم الحادّ فنجح بعمله ولعلَّ معالجات اخرى ليليَّة لغير ذلك من العللِ تأتي بالشفاء المأمول. فنشير على الاطباء بتجربتها

الحفريَّات الحثّية — نبَّهنا القرَّاء سابقاً الى خطر الاكتشافات العجيبة التي توصَّل اليها علماء الالمان في برّ الاناضول حيث وجد العلّامة ونكلر آثاراً لا يُحصى عددها ترتقي الى عهد الحثّيين احد الشعوب القديمة التي لعبت في سواحل بحرنا المتوسط وشمالي سوريَّة دوراً معتبراً. وكانت تلك الاكتشافات قد أُجريت في موقع حاضرة الحثّيين القديمة عند المكان المعروف اليوم باسم بوغازكوي. والامل معقود لدى العلماء بان يحلُّوا قريباً لغز كتابة تلك الأمَّة العاديَّة فاذا وقفوا على اسرارها

لرشدتنا الى عدّة معلومات عن اخبار بلادنا في القرون الموافقة لعهد بني اسرائيل وزمن دخولهم لرض الميعاد وأيام قضاتهم وملوكهم لانّ عدد الكتابات الحثية المعروفة يبلغ المئين عداً وفيها من الاحداث التاريخيّة ما تدلّ عليه التصاوير المكتشفة مع الكتابات. وهذه العاديّات الاثيرة حدت باحد اعيان المانيـة المسيو موهلبرغ الى ان يتبرّع بمبلغ واسع من المال لمباشرة حفريّات اخرى في ايوك الواقعـة على مسافة بضع ساعات من شمالي بوغازكوي وقد وقفنا على نتيجة هـذه الحفريّات الجديدة فاذا هي في حسنها ووفرتهـا كحفريّات بوغاز كوي. وقد نشر مكريدي بك ناظر الحفريّات باسم المتحف السلطاني لائحة اشغال الالمانيين هنـاك مع صور الآثار التي اخرجوها من دفائنها فاطّلعنا على هذه المكتشفات بسرور وتضاعف أملنا في كشف الستار عن معاني كل هذه الآثار

-ﷺ- الهواء الاصفر وعلاجهُ -ﷺ- قلقت العقول في اوربّة لانتشار الهواء الاصفر في بطرسبرج. فانّ عدد المصابين مدّة شهرين تجاوز العشرين الفاً مات منهم نحو نصفهم. فاتخذت الدول المجاورة لروسية الاحتياطات اللازمة لمناصبة الداء وحجزه. ومّا عرفهُ العلماء في زماننا انّ باشلّوس الهواء الاصفر من الميكروبات التي يسهل الظفر بها ومما يقتلها الحرّ اذا بلغ ٦٠ درجة فوق الصفر. وكذلك الادوية المضـادّة للعفونات فانّها تفتك بميكروب الهواء الاصفر وتفنيه. الّا انّ انتشـار الداء يتمّ بكل سهولة فالطاعون ينتشر بواسطة الفيران امّا الهواء الاصفر فبواسطـة الانسان المصاب بهِ وبكل الاثاث والثياب التي مسّها ذاك المعديّ بالمرض. وربّما وُضعت تلك الثياب بالماء لتُغسل فينتقل الميكروب بواسطة الماء الى الاصحّاء. فلذلك ترى الدول الاوربية مراقبة للثغور المسكوبية لتقوم في وجه العدوى وتمنع فشوّها

-ﷺ- حلّ لغز -ﷺ- طلب المشرق في العدد الثـامن من السنة الجارية (ص ٦٣٦) حلّ لغز وجدهُ المستشرق المسيو مسنيون في ابيـات رويت لابي المغيث الحلّاج وحيث لم ارَ احداً حلّ هذا اللغز ابديتُ رأيي فان اصاب كان بهِ افادةٌ للسـائل فعلى ما ارى ان الملغز يقول في اياته انهُ ليس من غير المؤمنين بل ايمانهُ عظيم كايمان موسى حينما كلّمهُ الربّ من فوق الطور. وعليهِ فتكون العبارة الملغز بها هي « ايمان » من ستة احرف لان الكسرة بمقام حرف. والحرفان المعجمان هما اليـاء والنون. وقولهُ

« وحرفان اصلي » هما اليـاء والميم « وحرف آخر معجم » هو النون » يَمَنٌ « منسوب الى « يَمَنٍ » يعني اصلهُ من اليمن
ابراهيم يوسف مـابكي

اقدم الآثار الخطيَّة هي صفيحة من البردي عثر عليها في حفرياتهِ المصريَّة احد المهندسين الفرنسويين اسمهُ بريس (Prisse) فاهداها المكتبة العموميَّة في باريس وتاريخها قريب من ٧٠٠٠ سنة . امَّا مضمونهـا فحِكَمٌ تهذيبيَّة وتعاليم ادبيَّة وفي اثنائهـا اشارة الى ناظر خزانة الكتب في مصر وذلك ما يدلُّ على انتشار فنّ الكتابة في ارض الفراعنة

اثر تاريخي عن المسيح طبع يوسف افندي كرمي من الزقازيق في مطبعة جالتي بالاسكندريَّة ورقة صفيقة حلَّاها بالنقوش والذهب وضمَّنها اثرًا غاية في الحسن والاعتبار لولا انهُ كاذب . والاثر المذكور كما زعم المتولّي لطبعـهِ رسالة من « يوليوس التيوس والي اليهوديَّة الى المحفل الروماني » يخبرهُ عن ظهور المسيح ومعجزاتهِ في اورشليم . وليس هذا الاثر المزعوم سوى الرسالة التي بحثنا عنها في المشرق (٩ : ٣٩١ —٤٤٣) وبيَّنَّا كل ما اودعت من الخرافات . وهـذه النسخة الجديدة زادت على التي زيَّفناها اغلاطًا عديدة يطول بيانها اخصّها انَّها تنسب الرسالة الى رجل مجهول تدعوهُ يوليوس التيوس وتلقّبهُ بوالي اليهوديَّة . فلا ينخدع البسطاء بهذه الكتابات المزوَّرة

أسئلة وأجوبة

س سأل جناب الدكتور اسكندر افندي الحجَّار عن لفظة « مهوب » أهي قياسيَّةٌ او شاذة او مغلوطـة في بعض تراجم المزامير حيث ورد : « انَّ الله مَهُوب جدًّا في مؤامرة القديسين ومخوف عند جميع الذين حولهُ » فبقي صاحب جريدة الوفاء متحيِّرًا في جوابهِ وألقى السؤال على من يمكنهُ الجواب

مَهيب ام مَهُوب

ج ليست لفظة « مهوب » لا شذوذًا ولا غلطًا وانَّما هي قياسيَّـة لانَّ اصل « هاب » يائي وواويٌ معًا وان غلب اليائي على الواويّ وقلَّ استعمال هـذا حتَّى كاد يُعدُّ مماتًا او لغةً . وانَّما بقي منهُ اسم مفعولـهِ الدالّ على اصله . ولذلك ترى اصحاب المعاجم يذكرون « هاب » في مادة ه و ب كما يذكرونها في ه ي ب

س وسأل حضرة القس انطون الرشاوي: ما هي الغفرانات الممنوحة لمن يحضر الذبيحة الالهيَّة أصحيح ما ورد في بعض الكتب انَّ الذي يحضرها يربح غفرانًا ٣٨٠٠ سنة ؟

حضور الذبيحة المقدَّسة والغفارين الممنوحة على ذلك

ج نقل فرّاري في مكتبتهِ (Prompta Bibliotheca) انَّ الذي يحضر الذبيحة المقدسة يمكنهُ ان يربح غفرانًا يبلغ ٣٠,٨٠٠ سنة (ليس فقط ٣٨٠٠)، الّا ان هذا قول جزاف لا صحة لهُ والدليل على ذلك ان المجمع المقدَّس لم يروهِ في كتاب الغفارين المطبوع في رومية برخصتهِ لا بل أجاب على من سألهُ عن صحّتهِ ان هذه الغفارين غير ثابتة. والكنيسة حتَّى الآن لم تمنح غفرانًا على مجرَّد حضور القدَّاس الالهي لما تحتويهِ الذبيحة المقدَّسة من النعم السابغة والكنوز الروحيَّة التي لا تحتاج الى انعامات غيرها

س وسُئلنا عن الكتاب المطبوع في رومية المدعوّ كتاب الارشاد لسائر الملل والـ...اد من مؤلفهُ

كتاب الارشاد

ج هذا الكتاب ألّفهُ الكردينال بلوكا (Beluca) المتوفى سنة ١٧٤٥ وعرّبهُ القس ثاوفيلوس فارس الحلبي من الرهبان الشويريين. وطبعه الكردينال برومية على نفقته ليوزَّع مجانًا على الشرقيين. ولم يرد ان يُذكر اسمهُ فيهِ اصلًا فلهذا من يقرأ هذا الكتاب لا يعرف من ألّفهُ ولا من طبعهُ ولا من عرَّبهُ ولا في اي سنة طبع

س وسأل من عين تراز حضرة الخرطوفيلاكوس الانطاكي الخوري يوسف ابراهيم هنا من صحة تعريب آية القديس بولس الى اهل رومية (٦: ١٢) كما وردت في نسختنا: «إذنْ لا تملك الخطيئة في اجسادكم المائتة حتَّى تطيعوا شهواتهِ» فسأل حضرتهُ أليس الصواب «جسدكم المائت»

تعريب آية بولس الى الرومانيين (٦: ١٢)

ج نعم انَّ الصواب وضع المفرد بدلًا من الجمع والدليل عليهِ ضمير المفرد في «شهواتهِ» العائد الى الجسد. وهكذا جاءت رواية النسخ القديمة كلها فالاصل اليوناني يروي (ἐν τῷ θνητῷ ὑμῶν σώματι) والترجمة السريانيَّة (ܒܦܓܪܟܘܢ ܡܝܘܬܐ) واللاتينيَّة (in corpore vestro mortali) فلا شكَّ انَّ ثمَّت سهوًا فاسرعنا الى اصلاحهِ شاكرين الى حضرة الكاتب المستلفت انظارنا الى الخلل ل. ش